

# المقصد

## تاريخ الحضارة

مترجم عن الإفرنسية

علم الكلام - بقي علم اللاهوت خلال القرون الوسطى العلم الرئيسي (والمدرسة اللاهوت في جميع الكليات التقدم على كل المدارس) وقد توفرت على الفلسفة خاصة أرباب العقول العاملة وكان لمشاهير علماء القرون الوسطى أمثال آييلاروسان توما ودونس سكوت وألبر الكبير القدرح المعلى في الفلسفة وليس علم المدرسة أو علم الكلام سوى فلسفة مطبقة على اللاهوت فكان المتكلمون يتقبلون تعاليم الكنية كلها. قال كيتوند أسقف فرنسا لا يجب أن يفهم المرء أولاً ليعتقد بعد بل يجب أن يعتد أولاً ليفهم بعد ذلك. وقال سان توما بعد حين من الدهر: إن حقيقة العقل ليست على تناقض مع حقيقة الإيمان المسيحي. ثم أن علماء الكلام درسوا فلسفة أرسطو (عرفوها من ترجمات ردينة باللغة اللاتينية نقلت من ترجمات عربية) وقد أعجبوا بمنطقه فكانوا يذهبون إلى أهم باستعمالهم طرق البرهان يحلون المسائل التي لم تحلها الكنية. وهذه المسائل: قد تكون دقيقة مثل قول بطرس لومبارد: إذا كان الله يقدر أن يعرف من الأشياء أكثر مما يعلم. وقال دونس سكوت: إذا كانت الصعوبة

في أن يكون مولوداً هي خاصية في تركيبة الشخص الأول في اللاهوت. وقال سان توما: إذا كان جسد المسيح عاد إلى الحياة وعليه جروح وفيما إذا كانت الحمامة إلى ظهر فيها الروح القدس هي حيوان حقيقي.

وكان علماء الكلام من أكبر العاملين فقد مات دونس سكوت (الدكتور الخقق) في الحادية والثلاثين وقد ألف ١٢ مجلداً من قطع النصف ولخص سان توما (الدكتور العام) في كتابه السوم جميع أفكار العصور الوسطى وعلى كتابه المختصر المعول في اللاهوت بالمدارس الإكليريكية الكاثوليكية. واخترع ريموند لول في القرن الرابع عشر الصناعة العظمى وهي أداة للبرهان يتأتى بها حل جميع المسائل بدون استخدام الذهن. وإذا كان المتكلمون لا يستخدمون إلا البرهان الاستقرائي دون ملاحظة الحوادث لم يزيدوا شيئاً على العلم البشري وظلت فلسفتهم كما يقولون هم أنفسهم خادمة لعلم اللاهوت.

خزائن الكتب والأدب العلمي - كان في الديار العظمى أبداً بعض القسوس لا عمل لهم إلا استنساخ الكتب وتزيينها فينقلون المخطوطات التي استعارها أديارهم من غيرها. وعلى هذه الصورة أسست خزائن الكتب فلم تتجاوز بضع مئات من المجلدات (فمكان في فيكان ١٤٨ وفي سان يفروول ١٣٨) لأن الكتب كانت نادرة والرق عزيراً وجميع الكتب كانت باللاتينية ومعظمها كان كتب عبادة وتنسك مثل الكتاب المقدس وآباء الكنيسة وكتب الطقوس وحياة القديسين وكان القسوس على صلابتهم لا يسرحون لغير هذا النوع من الكتب ويقولون أن كتب شيشرون وكتب فرجيل لا تنفع في سلامة النفس بيد أنه كان في بعض الأديار التي يغلب عليها حب الأدب بالأكثر شيء من المؤلفات اللاتينية الأخرى مثل مصنفات شيشرون وفرجيل وهوراس وبلين لجون والتعزية لبويس.

كتب رجال الإكليروس كالأساقفة ورؤساء الأديار والقسس في القرون الوسطى كثير من المؤلفات لأنفسهم فكانوا يؤلفون في الشعر والأدب ورسائل في اللاهوت وتواريخ يسرد فيها جميع أحداث العالم منذ البدء إلى زمن المؤلف ووقائع مؤلفة من أخبار جافة جداً تكتب سنة فسنة تذكر فيها أخبار المجاعات والأوبئة والمذنبات والحروب ووفاة الملوك أو رؤساء الأديار. كل ذلك باللغة اللاتينية وإنشاء مطول مزهر مصنع نكث فيه الامتهدادات أشبه بلغة تلميذ يتعلم اللاتينية. وكان رجال القرون الوسطى جناء الفكر يعتقدون أنفسهم أحط جداً ممن سلفهم ولا يطعمون إلا في أن يقلدوهم وانك لتجد في آدابهم بعض الأفكار صرح بما بقرة وبعض صحف حية في تواريخهم ولكن أدبياتهم أديبات طلبة فهم طلبة اجتهدوا وأعوزهم الإبداع.

أدب العامي - أم عاه المدن والقصور ممن لا يعرفون اللاتينية فقد اقتضت لهم كتب باللغة العامية لغة الرومان (المشتقة من اللاتينية) وهكذا نشأ نحو أواخر الحادي عشر الميلادي الجديد فابتدأ من الشعر كما جرت العادة في أنواع الآداب فسوا هؤلاء الشعراء المتجولين وهم الذين يتجولون في شمالي فرنسا ويؤلفون أشعارهم بالفرنسوية ويسمون شعراء الجنوب الطوافين وهم يؤلفون بلغة أقاليم البروفانس (البروفانسال) وكان بعضهم فرساناً وصناعة الآخر الشعر ويسمونهم المشعدين كانوا يذهبون إلى الأسواق الكبرى حيث يجتمع أغنياء التجار ويقصدون قصور أعظم السادة في أيام الأعياد ويعنون ومعهم ربابة صغيرة وهذه الشعار ذات الثمانية أو العشرة مقاطع سميت بالأغاني لأنه كان يتغنى بها وسميت (بلغة البروفانسال الرومانية) لأنها كانت باللغة الرومانية. وكان شعراء الجنوب أكثر حفة ولغوا فينظمون قطعاً صغيرة من الهجاء أو أغاني العشق أو أغاني الليل أو غاني السحر. وشعراء الشمال أميل إلى الجد يترفون بالحروب والغارات وهجمات شارلمان ورفاقه وارتور ملك الغال وبحروب

الإسكندر فكانت أغاني العمل وقد نظموا من هذا القبيل مدة ثلاثة قرون في الولايات الفرنسية في الشمال ووجد في أيامنا منها زهاء ألف قطعة في مخطوطات منسية من القرن الرابع عشر ومن يعلم كم فقد من نظائرها. ومن المتفق عليه أن أجملها ما كان قديماً مثل أغاني رولاند وراول دس كامبري وكارن لوهرين وأشعار كريت دي نروا. ومما يسقم قصائد القرون الوسطى سواء كانت بلغة الرومان أو اللغة اللاتينية الهوس في التقليد والشرح واذ لم يكن لشعراء القرن الثاني عشر أمثلة يحتذونها ذهبوا مع الطبع ونطقوا بما شعروا به ووصفوا ما رأوا. ولم يأت الشعراء في القرون التي غير التوسع في القصائد القديمة وأصلحوها ثم حدثت القصائد ذات العشرين والثلاثين ألف بيت التي لا يحكم على غير المتأدين بتلاوتها.

منشأ الهندسة الرومانية - لما أخذ المسيحيون في القرن الرابع يحتفلون على ملأ الناس بعبادتهم كانوا يجتمعون في كنائس كبرى وهي قاعات عظيمة مطحة المقف تكون محكمة مدنية وسوقاً للتجار في آن واحد فكان المؤمنون يقعدون في ساحة التجار أو الصحن وهو مقسوم إلى رواقات تقسمها صفوف من السواري ومحل الخكمة على شكل نصف دائرة وأعلى الصحن كان بمثابة محراب يجلس فيه الأسقف أو القس. وقد احتفلت الكنائس المسيحية زمناً باسم البازيليك (البيعة الكبرى) وصورتها أن تتألف من صحن كبير على جانبها صحنان صغيران ومحراب يسمى عقداً بسبب العقد الذي يغطيه ثم تصوروا أن ينوا في مقدم الكيسة برجاً أو برجين يجعلون فيه الأجراس وأن يستعصوا عن السواري الخفيفة بدعائم مصمتة وأن يجعلوا بدلاً من الخشب والسقف المسطح المعرض للحريق بناء من حجر على شكل عقد وبذلك نشأت هندس جديدة سميت الرومانية لأنها نشأت في بلاد الرومان. فقد بدأت في إيطاليا الشمالية وجنوبي فرنسا في القرن الحادي عشر ولكنها انتشرت في جميع أوروبا

الغربية والكنائس الكاتدرائية الكبرى في ورمس وسير في ألمانيا هي كنائس رومانية ولا يزال في كثير من القرى في وادي الرون أو في أوفرنيا ونورمانديا كنائس قديمة على الشكل الروماني إذ لم تمكنها حالتها المالية من إبدال ذلك القديم بطرز من البناء الجديد.

الهندسة الرومانية - لما كانت الكنائس الرومانية قد بنيت في بلاد مختلفة وعصور متطاولة على يد مهندسين لم يتبعوا أصولاً واحدة في الهندسة فقد بعد الشبه بينها ولذلك لا ترى لأوفرنيا هندسة خاصة بها ومثل ذلك لنورمانديا وألمانيا. ولكنها كلها ترجع إلى مبدأ عام وهو أن الجزء الأكثر زينة أي الواجهة متجهة نحو الغرب وقبة الجرس (وأحياناً تكون قبتان) تقوم فوق الواجهة وتنتهي بذروة محدودة وتشرف على الكنيسة بأسرها والرتاج أو الباب الأعظم يكون في أسفل الكنيسة ومنه يدخل المصلون وهو نجاباً منقوشة وأحياناً لا يبع الداخل الرتاج قبل أن يجتاز دهليزاً وهو ذو سوار في مقدم البناء والرتاج يؤدي إلى صحن الكنيسة الأعظم في الوسط وعلى الجانبين عمد متينة تضمها أروقة تمل الحوائط الداخلة التي تجتمع في أعلى البناء فيتألف منها عقد ومن كل جهة من الصحن الأكبر بين صف الأعمدة والحائط الخارجي من الكنيسة صحنان صغيران ويسميان الجانبان الواطنان فالصحن الكبير والجانبان الواطنان بفضل بينها رواق عريض عال ينتهي في كل طرف من أطرافه برتاج متطرف يشبه رتاج الواجهة (وأحياناً تعلوه قبة جرس) ثم يكون الجورس على شكل مدور على خط مستقيم مع الصحن الأعظم ولكنه أعلى منه بضع درجات والصحنان الواطنان يمتدان على جانبيه وكثيراً ما يحيطان به من الورداء وكل هذا الشطر من البناء الذي يسمونه الرأس مغطى بقبة.

وتحت الخورس غرف معقودة وهي الناووس فيها ذخائر القديسين وتضيء الكنية بنوافذ تطل على الصحنين الواطنين أو الصحن الأعلى وقد أقيم في الخارج لتدعيم الحوائط الخارجية لتحمل ثقل العقود الباهظ دعائم قوية جعلوها سندا من جانبي الكنية بين النوافذ وأرتجة الصحنين الواطنين وقباب الجرس كلها وأقيمتها ونوافذها على صورة العقود أي على شكل نصف دائرة مثل البنية الرومانية القديمة وقد جعل شكل الكنية على صورة الصليب ورجله الذي هو عبارة عن ثلاثة أرباع مجموع رقعة المكان مؤلف من الصحن وما على جانبيه من الصنائين الواطنين وفيه يجتمع الناس والرواق العريض العالي يمثل ذراع الصليب والرأس المدور هو القلب وهو اغل المقدس من الكنية يجلس فيه رجال الدين وتقام فيه الحفلات الدينية.

هندسة رسم البيكارين - بدأ المهندسون الذين بنوا الكنائس نحو القرن الثاني عشر يستعيضون عن العقود المدورة بعقود على رسم البيكارين. وقد احدث هذا الاختراع الذي تيسر به إنشاء عقود أعلى وأخف انقلاباً في هندسة الأبنية. فظل الرسم العام في الكنية واحداً: صلياً رجله الصحن ورأسه محرابه (خورس) وبلكن بدلت جميع تفاصيل البناء إذ بنيت العقود كلها على رسم البيكارين لا على صورة قوس فارتفع الصحن الوسط إلى علو شاهق وارتفع الصحنان الواطنان أيضاً وأصبحا فنائين حقيقيين. واستغني عن العمدة المصمتة التي كانت تمسك العقود بجملته من العمدة الصغيرة الخفيفة وجعل فوق الإسناد التي تمسك فوق الحوائط الخارجية زوافر (نصف قناطر) عظي مارة مثل جسر هوائي فوق الصحن تدعم حائط الصحن الأكبر الأوسط من جهة واذ كانت القناطر الضيقة موطدة البنيان على هذه الصورة ساغ أن تكون فروج البناء أكثر علواً وسعة فانفرج الحائط الذي كان في الكنية الرومانية يشغل أكثر من نصف الجانبين وجعلت مكانه نوافذ. فغدت النوافذ القسم

الرئيسي من الكنيسة وهي على ضروب متنوعة منها نوافذ على شكل المضع تعمل لقباب الأجراس خاصة وهي فروع عظيمة تقسمها عميدات طويلة رقيقة إلى قسمين وتشبه فرجة تتخلل الكية من أعلاها إلى أسفلها والنافذة من الجوانب الخارجة مزينة منقوشة من داخلها وخارجها بتخاريم من الحجر زينت بالزجاج وفوق الأرتجة نافذة عظمى مدورة يسمونها الوردية وهي أيضاً تتخللها تخاريم على شكل الورد وليس للسواري تيجان بل تنتهي في ذروتها بباقة من الورق معمولة من الورق.

تغشى الكية كلها من داخلها وخارجها نقوش من الحجر فنسجها ما هو على الرتاج والنوافذ فوق الإسناد وفي طرف الزواجر وفي جميع طبقات قبة الجرس ومقدم البناء. ولقد مهر النقاشون فغدوا ينوعون تزييناتهم فكانوا يرسمون أوراق الحجر على مثال نبات البلاد مثل القراص والعوسج والحسك والورد وعليها مسحة من الظرف وتمائيل القديسين التي لا تزيد الأرتجة والكوى والمشاهد المصورة فوق الرتاج مشهورة بما فيها من الحياة والحقيقة وتمثل الميازيب حيوانات خيالية وشياطين غريبة الصور أو بضعتها معلقة في الفضاء وكل ذلك اختراع غريب مستفيض. وصور القبور ولاسيما في القرن الخامس عشر كثيراً ما تكون من بدائع النقش وقد بدأت هذه الطريقة في البناء نحو القرن الثاني عشر في أرباض باريز من أملاك ملك فرنسا (وربما كان ذلك في كيسي سان ديني ونويون) ومن هنا انتشرت في أنحاء فرنسا كافة ثم في سائر بلاد أوروبا وكانت هذه الطريقة هي المعول عليها منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر في كل من فرنسا وألمانيا وإنكلترا. وأخذ المهندسون الإيطاليون في القرن السادس ينون على مقال القدماء فنازعوا بذلك هندسة القرون الوسطى نزاعاً شديداً إذ كانوا اتخذوا بمثابة اختراع للبرابرة الذين داهموا إيطاليا وهم الغوت فقد سموا الغوتي وبقي هذا التعبير لتحقير هذا الطراز من

البناء يطلق عليه. وليس من ينكر اليوم أن الهندسة الغوية هندسة متانة وإبداع فأجمل كنانس القرون الوسطى مثل كنيسة نوتردام دي باري وكاتدرائيات ريمس ولاون وأمين وبوفي وكولون وستراسبورغ وبال وفريبورغ كلها كنانس غوتية.

الطرز الغوي المدني - استعملت الهندسة الغوية بادئ ذي بدء للكنائس ثم استعملت في لأبنية الأخرى. ففي القرن الرابع عشر والخامس عشر خصوصاً نهض بعض السادة وأغنياء المدن فبنوا لنفسهم قصوراً وفنادق وبت المدن مجالس بلدية ولا يزال كثير من هذه الأبنية باقياً إلى اليوم أثراً باهراً من آثار الهندسة ففي إقليم الفلاندر مجالس البلديات في بروج واير وأدونارد وفي فرنسا قصر العدلية في روان ونزل جاك كور في بروج. وأهم ما في هذه الأبنية المدنية مقدم البناء فهي في المجالس البلدية تشبه مقدم بناء الكنية والمرتب يوم مقام قبة الجرس وواجهة الفنادق خاصة تطل في العادة على على فناء داخلي ويفصل بين النوافذ صليب من الحجر (ومنه اشتق اسم المشك) وهي مزينة بأبراج صغيرة من الورق وقد فتحت في السقوف طيقان بديعة والأجنحة والأبراج على شكل حقة القفل وهي في جميع الزوايا بارزة عن الواجهة والزوايا كلها مزودة بتماثيل صغيرة وداخل الحجر مزين بغصون أو صور منقوشة بالوان جميلة. وربما لم تعمل أبنية كهذه في البهجة واللفظ.

الطرز الغوي المتألني - كلما تقدمنا نحو أواخر القرون الوسطى رأينا الكنائس مغطاة برسوم ونقوش متنوعة بديعة وأكثرها في الاستعمال ورق الملفوف المعوج اعوجاجاً غربياً فالكنيسة كانت وإحالة هذه تشبه شيئاً من بر وهذا ما يسمونه الغوي المشعشع شاع في القرن الخامس عشر خصوصاً وأهم ما صنع منه في ذلك العصر كنيسة وستمنستر في إنكلترا وبرج سان جاك في فرنسا وسان أوان في روان. واعتاد القوم أن يزهدوا في الطرز الغوي المتألني وأن يعدوه إفساداً للطرز الغوي الخالص. لا

جرم أن أجل الكنائس بناء هي من العهد الأول لاختراع الطرز الغوتي ولكن معظم الدور الجميلة هي من بناء القرن الخامس عشر.

صفة البناء الغوتي - لم يتفق الناظرون على التأثير الذي ينشأ من الكنائس الغوتية فإن معظم الزوار تملك عليهم مشاعرهم بما يرووه من جلال تلك العقود العالية والسواري الصغيرة كالغاية بكثافتها وهي في الجو محلقة وننظر هذه القباب للأحراس المحددة والأوراق المعوجة والغيلان التحيلة والأنوار التي ترسل من خلال الزجاج الملون وقفص الحجر والزجاج الذي يظهر أنه لا يقوم إلا بمعجزة كل ذلك مما يحدث اثر صناعة قابلة العطب ومخالفة للطبيعة واجتهاد قوي لبلوغ السماوات العلي. ومن هنا نشأ هذا الرأي الشائع وهو أن الهندسة الغوتية هي نتيجة سامية لعصر متألم تعذبه الحاجة إلى اللانهاية. ويقول بعض أهل هذه الصناعة أن هذه الهندسية على العكس تمتاز بنظامها المعقول وترتيبها المدقق في أطرافه وأعطافه والتأثير العام الذي يحدثه تأثير حياة قوية راقية فيها البهجة والأنس.

التوسع في الحريات السياسية وارتقاء الطبقات النازلة

### تحرير المدن

صكوك التحرير - معظم مدن فرنسا قري قديمة يملكها أحد السادة غلى ما استبان من أسماؤها فإن (فيل) (المدينة) أو في معناها المحلة حتى أن المدن التي يرتقى عهد تأسيها إلى الرومان قد سقطت في أيدي أساقفتها (مثل أمين ولاون وبوفي) أو في يد الملك (مثل أورليان وباريز) أو في أيدي بعض الأمراء (مثل أنجر التي كانت للكونت دانجو وبوردو للدوق أكيتين) فكان السيد أو وكيله يحكم كما يحكم السيد على سكانه فيكرهمهم على أداء المال ويقضي بينهم ويحكم عليهم وكثيراً ما يأخذ منهم

بضائعهم أو يوفقهم بدون سبب لأنه كان القاضي فيهم وحده. وكانت المدن في القرن العاشر حقيرة للغاية إلا تمتاز عن القرى إلا أنها محاطة بسور.

غدا السكان في القرن الثاني عشر أكثر غنى فأخذوا يرغبون في النظام المرتب واخذ بعضهم بشقه عصا الطاعة أو بأدائه مبالغ باهظة يتوصلون إلى أن يناولوا من سيدهم وعوداً يسجلونها في صك فكان السيد يقول إنني أعلم الجميع إنني أمنح أهل مدينتي العادات الآتية وذلك بأن يدفعوا إلي من الآن فصاعداً المبلغ الفلاني كل سنة في وقت كذا وأتعهدهم بأن لا أتقاضاهم شيئاً غيره. وجرت العادة في هذا الصك أن يشفع بقائم الغرامات مثل قولهم من يضرب غيره بجمع كفه يؤدي إلى ٣ سولات غرامة ومن يبلطه برجله يدفع خمسة وإذا سال دمه سبعة ومن يستل مدية أو حساماً بدون أن يضرب بها يؤدي ٦٠ سولاً وإذا ضرب عشر ليرات ومن ييضق على غيره يسمى أجذم ويدفع لي ٧ سولات الخ ويشترط أحياناً أن لا يعد الدم الذي يجري من الأنف دماً مسفوحاً وأن الأولاد في سن الثانية عشر ونازلاً إذا تضاربوا لا يفرمون ومن شأن الصك أو العهد أن يحدد كل التحديد مبلغ الغرامة أي ما يحق للسيد أن يتقاضاه عن كل خطأ يرتكب. واليك الصورة التي عرف بها أحد رؤساء الأديار في القرن الثاني عشر واسمه كيردي نوجان هذا العقد الذي عقد بين المدينة وسيدها: إن لفظة مديرية من الألفاظ الجديدة المنقوطة ومعناها أن العبيد يدفعون مرة في السنة فقط إلى سيدهم الدين المعتاد لقاء عبوديتهم له وإذا ارتكبوا بعض الذنوب لا يؤدون سوى غرامة معينة من قبل أما سائر السخرات والتكاليف التي تتقاضى في العادة من العبيد فإنهم يعفون منها بتاتاً. وهذه العادة في تعيين الواجبات نحو سيدهم تسمى عادات وحرية أو تحريراً. فقد عنيت جميع المدن أن تنال مثلها فبدأت الحركة في أواخر القرن الحادي عشر في مدن الجنوب وفي الشق الآخر من فرنسا في إقليمي فلاندر وبيكارديا حيث

كان التجار الذين يفتنون من التجارة ومنها امتدت إلى أوروبا بأسرها بحيث أنه لم ينقض القرن الرابع عشر حتى لم تبق بلاد لم تحصل على حريتها.

المديريات - كان في المدن عدة ضروب من السكان وأرباب الصناعات والعملة المرتبين بحسب حروفهم ومهتهم وتجار وميوت لها شيء من الغنى تعيش به بدون أن تعمل ويدعى مجموعهم البورجوا أي سكان مدينة حصينة (بروج) وهم محافظون على الاعتصام بطاعة سادتهم ولكن بحسب الشروط المذكورة في عهدهم وهذه الشروط تختلف اختلافاً كثيراً. فلم يكن هؤلاء السكان في معظم المدن من الحقوق إلا أن يعينوا أناساً منهم يسموهم أهل الحشمة وهؤلاء هم نصحاء وكيل السيد ويعينونه على جباية الضرائب. أما في المدن التي نالت حظاً أوفر (مثل بوفي وليل وديجون وناربون وتولوز) فقد رخص لسكانها أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وهناك كانت المديريات الحقيقية. جاء في صك العهد الذي نالته مدينة بوفي أن كل واحد يعاون الآخر ولا يسمح بأن يؤخذ منه شيء. وكان يكفي إذا اعتدى غريب على أحد سكان ليل أن ينادي للبرجوازية أي بالسكان المدينة فيهرع إلى نجدته من كان حاضر منهم ومن يخلف يغرم وللمديرية ما للفراس من حقوق فلها أن تحارب أعدائها وتحرب بيوتهم. ولها طابع تختم به عهدوها علامة على حقها كما أن لها خزانة تضع فيه مالها ومرقياً فيه جرس تدعوه به سكان المدينة إلى حمل السلاح (والمرقب هو كبرج الجرس عند سكان المدن) ومجلساً بلدياً أي داراً يجتمع فيه رجال المدينة يعني مجلس الرجال الذين يحكمون المدينة.

رجال المدينة - يتألف رجال المدينة من أعضاء المديرية فيكونون تارة أربعة وأخرى اثني عشر وآونة مئة وأحياناً متساويين في العدد ويرأسهم رئيس في الأحيان فيعون في الجنوب القناصل وفي الشمال شيوخ البلد أو مشايخ الحرف أو الحكام يختارون من

أشراف المدينة وكثيراً ما ينتخب بعضهم بعضاً أو يتوارثون الحكم أباً عن جد ولم يفكر أحد قط في القرون الوسطى أن يطالب بالمساواة سواء كان ابن المدن أو من الأشراف. ولهؤلاء الأشراف على السكان سلطة مطلقة فهم الذين يقضون في الدعاوي ويمكّمون على المجرمين ويجرون الخراج ويحتفظون بفتح الأبواب فيمدون السلاسل في الشوارع وقت الخطر ويقرعون جرس المرقب وعلى صوته يهرب السكان بأجمعهم مدججين بأسلحتهم ويقفون طوعاً وإرادة رؤسائهم وعليهم أن يحضروا أيضاً إلى المجلس العظيم إلى الساحة وإلى المقبرة أو إلى الكنيسة للمفاوضة في المسائل العامة لاسيما قرارات رجال المدينة.

العدل المدني - ليس لابن المدينة أن يأخذ حقه بسلاحه كما هو شأن الفارس بل عليه أن يعتمد إلى رجال المدينة أو نائب السيد ليعيدوا إليه حقه المهضوم وذلك في محكمة أبناء المدينة ويطبقوا في هذه المحكمة مقاصل العادة القديمة فالمهان أو قريب المصاب يقف موقف المدعي فيبين الجرم ويركع على الأرض ويضع يده على ذخائر القديسين ويقسم بأن ذلك الرجل ارتكب الجرم ويحلف المدعي عليه بالعكس كلمة كلمة وقد تقضي المحكمة أحياناً عليهما بأن يتارزا بالعصي ومن غلب منهما يحكم عليه. وإذا أتى المدعي بشهود يجب على كل منهم أن يقسم اليمين مردداً الكلمات ذاتها من أن المدعي عليه مجرم وإذا حلف شاهدان يحكم على المدعي عليه ومن الصعب إيجاد شاهدين كل حين إذ يطلب من الشاهد أن يكون قد رأى المجرم يرتكب بعيني رأسه.

يجري كل ذلك علناً في العراء ولا يسجل شيء مما يقرر فبعد البراز أو الأيمانان تصدر المحكمة حكمها قرأ أفتوه علناً وهو: بحسب الحقيقة التي وعانا مشايخ البلد نقول لكم أن هنا وجد مجرمًا ذا قلنا لكم تعاقبون بما تستحقون. ويحترم رجال البلد في القرون الوسطى الصور بحيث أن أقل هفوة تكفي في خسارة الدعوى. فقد جاءت

في عادة ليل أن كل من يترع يده من القديسين (أي من ذخائرهم) قبل أن يقسم اليمين وينطق بالكلمات التي يقضي بها القانون والعادة يحسّر دعواه. وكل كلام يربط من يلفظ به لأن القضاة لا يعتبرون إلا الكلام ولا يحكمون إلا على النيات وتقدر العقوبات على صورة مرممة لا نقض فيها وليس في مكة القضاة أن يغيروا فيها. فالقاتل يقطع رأسه وهو الذي قتل متعمداً فجر على طبق إلى المشقة ويصلب والذي يحرق يحرق والمرأة التي يحكم عليها بالإعدام تدفن حية وهذه القاعدة لا تتخلف في التنفيذ. وإذا أقر المحكوم عليه تعدد صورته فيحرق أو يصلب مجدداً (صورة من خشب) على صورته ومثاله. وإذا انتحر أحدهم تجر جثته على نطع ويصلب فيفعل به كما يقضي العدل بأن يفعل به ل ثبت أنه قتل آخر. وإذا قتل ثور رجلاً أو افترست خنزيرة ولدأ يصلب الجلاد الخنزيرة أو الثور وقد دام قتل الحيوانات على هذه الحالة إلى أواخر القرون الوسطى.

تخفيف العبودية - حنت أيضاً في القرون الوسطى حال السكان في القرى (وإن كان تحسينها على ضعف) وكنت ترى في القرن الحادي عشر العامة عبيداً أكثر مما كنت ترى أحراراً فكان معظم الفلاحين من المكلفين بأداء الجبايات على نحو ما يريد سيدهم ويقدر ما يستتسب وإذا ماتوا يخرجون عن ملكهم فتعود الأرض التي حرثوها إلى السيد واضطر عبيد القرى بعد القرن الثاني عشر كما اضطر سكان المدن سادقهم أن يحددوا ما يقضى عليهم أداؤه من مال ويعدلوا عن استصفاء الأرض لأنفسهم بعد موت صاحبها وكان يسمى ذلك التحرير أو الاشتراك (تحديد الحدود) وتكلف هذه العناية كثيراً لأن السيد لا يبذلها إلا مقابل مبالغ باهظة يتقاضاها ولكن عمله لا ينقص متى أبرم فقد أصبح العبد المشترك وهو لا يدفع هو وأخلافه إلا جباية معينة دائمة وأسمى من العامة الأحرار وهكذا كلما نالت بعض القرى الجديدة صكوكاً

بذلك يقل عدد العبيد. ولم يبق أثر لذلك في بعض الولايات خلال القرن الرابع عشر وبقي من هذا الإصلاح شيء إلى القرن الثامن عشر (ولاسيما في مقاطعات بورغونيا وكورنث وأوفرنيا) لكن على قلة.

ولقد نال من بحرهم سادتهم حرمتهم وقضت العادة بأن كل عبد يستطيع مغادرة قريته على شرط أن يخضع طاعة سيده والسيد يحتفظ بالأرض ويجب عليه أن يطلق سراح خادمه.

### معاهد إنكلترا في القرون الوسطى

السكسونيون - كان يتزل جنوبي بريطانيا العظمى منذ القرن السادس أناس من المحاربين الجرمانيين سكونيين وإنكلزيين الذين كانوا يأتون من سهل ألمانيا الشمالية الواسع المصب (المملوء بالضباب) القاحل بلغو هذه الأرض مسلحين عصابت مع أسرتهم وقد أبادوا الشعوب القديمة أو طرحوها إلى أطراف البلاد إلى جبال كورنوال القاحلة وبلاد الغال وكانوا من الجرمانيين الخالص شقر الشعور زرق العيون ضخام الجسام مفتلي العضلات بيض الوجوه عظاماً في مآكلهم عظاماً في حروهم يقضون النهار على المائدة (في قصور ملوكهم أربع وجبات من الطعام كل يوم) فيزددون أبقاراً برمنها ويشربون شراب العسل ملء أوانيهم كما يتعاطون شراب العسل المخمر الذي يسكر أقوى الرجال ومتى طفحوا يغتنون بخلاص محاربيهم يحبون الحروب حتى أنهم لما انتصروا أيضاً كانوا يحبون أن يموتوا والأسلحة بأيديهم. قال اللوق دي نور توميرلانده وهو على فراش المرض: أي عار علي يلحقني إذا أنا لم أمت في الحروب التي خضت عنهما وأنا أن أموت كما يموت البقر ضعوا لي درعي وسيفي وخوذتي وترسي وفأسي المذهبة حتى يموت محارب العظيم وهو في حالة القتال.

ولقد كانوا يقتلون سكونيهم مع سكونيهم والأقرباء بعضهم مع بعض. رأينا  
توسني أخوا آرولد في القرن الحادي عشر مغاطباً من نيل أخيه الحظوة من الملك ذاهبا  
إلى أحد القصور الملوكية حيث كان أدب آرولد مآدبة ويقتل خدمة آرولد ويقطع  
رؤوسهم ويتر أعضاءهم ويجعلها في أواني الجعة وشراب العسل ويبعث إلى الملك  
يقول له: إذا قصدت قصر ك تجد فيه زاداً طيباً من اللحم المملح. وبذلك يعد رجال  
تلك الأحقاب شجعاناً مخلصين صادقين لآبائهم وسادقهم في لعب السيوف أشداء  
على الأعداء والأولياء وقد ورد في القصيدة الكونية الوحيدة التي أبقها الأيام أن  
بيوفولف البطل مات دفاعاً عن شعبه بإنقاذه من تين كان يحرس كثيراً. واليك منشأ  
الأمة الإنكليزية: مقاتلون متوحشون سفاكون ولكنهم أهل مضاء وإخلاص.

النورمانديون - كان السكندينايفون (الدانيمركيون والنرويجيون السويديون) في  
القرن التاسع كما كان الجرمانيون في القرن الرابع أهل غارة متوحشين وثيين تقضي  
عاقبهم أن يرث ولد واحد من أبيه بيته وماله أما سائر الأولاد فيضمون عصابات  
بعضهم إلى بعض ليذهبوا في طلب الثروة. فالمقاتل البربري إذا لم يخلف له أهله ما  
يعيش به يرى من دواعي شرفه أن ينال الغنى بجد الحسام ويعتبر العمل محلاً بشرفه  
فإذا لم يكن مالكا يسرق وينهب وإذا جاور السكندينايفون البحر أصبحوا قرصاناً  
فبحر العصابة منهم في قوارب خفيفة ذات فلوغي بقيادة زعيم تختاره من بين ملوك  
البحار الذين طالما فاحروا بأنهم لم يناموا تحت سقف ولم يفرغوا قرن الجعة بالقرب من  
الدور المأمولة. ذهب تلك العصابات ذات اليمين وذات الشمال فنسها من ضربت  
نحو الشمال تفتح أيسلاندا وغيروانلاندا واعتصمت أخرى في القلاع تنهب السفن  
وتساق القطعان هكذا كان شأن رؤساء القرصان المشهورين في جيسورغ الدين  
أرغوا البحر اللطيفي وأزبدوه خلال قرنين وقد آثر أكثر تلك العصابات أن يذهبوا

إلى البلاد التي حازت شطراً من المدينة مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا فزّلوا فجأة على الشواطئ وساروا في الأمار ينهون الدور ويهاجمون المدن إذا كانت حصينة ويشتدون في معاملة الكهنة لكراهة فغيهم بصفتهم وتبين فكانوا يقولون لهم إنا أقمنا لهم قداساً من الرماح. وكانوا يدعون فقي إنكلترا الدانيركيين وفي غيرها رجال الشمال (النورمانديين) وقد قبلت العصاة الرئيسة فيهم أن تستوطن فرنسا وكانت الولاية التي اصحت نورمانديا خاملة لم تفتح قط وبعد قرن ونصف عرفت في جميع أوروبا فاقبس النورمانديون في الحال الدين المسيحي واللغة الفرنسية (ولم يتكلم باللغة الدانيركية إلا في بايو) وتآلفوا مجتمعاً وكان هذا المجتمع المؤلف من قرصان على نظام وترتيب أكثر من غيره. فكان الدوق مطاع الكلمة فيهم يعدل بين قومه كلهم وأقليم نورمانديا الوحيد في أقاليم فرنسا الذي حظرت فيه الحرب الخاصة وكان العدل منتظماً عاماً للجميع. ولقد رويت من هذا القبيل قصة خاتم الذهب الذي ظل معلقاً على شجرة بدون أن يجراً إنسان أن يسرقه ومع هذا فقد احتفظ النورمانديون على كرم الدهور بأجسامهم الضخمة الشقراء وبالضياء والإقدام على العمل الذي انتقل إليهم من أجدادهم المتشردين.

الفتح النورماندي - زعم غيلوم دوق نورمانديا أن ورت من تاج إنكلترا فأعطاه البابا الحق في ذلك وبعث إليه بعلم مقدس فجمع جيشاً قوياً نحو ستين ألف متشرد ليسترد مملكته وكلهم من الفرنسيين ووعدهم بأن يمنحهم أراضي وبعد أن كتبت لهم الغلبة أهمل أمر جنده وتركهم يعولون أنفسهم ويسكون بيوت المكورنيين اللذين حاربوه ويحلون في أملاكهم ويأخذون بالقوة أيامهم أو وراثاتهم وهكذا يصبحون أرباب أكلاك وشرف (وهذا ما دعي بفتح إنكلترا) وأصبح بعد ذلك معظم الأشراف والأحبار فرنسيساص لم يقتبسوا أخلاق المكورنيين إذ كانوا يحرقونهم بل

ظلوا يتكلمون بالإفريقية ويعيشون عيش فرسان الفرنسيين فيعتون بأولادهم إلى نورمانديا ليعلموهم اللغة وقضى بأن لا يتكلم في المدارس إلا باللغة الإفريقية أو اللاتينية وبقيت اللغة الإفريقية مدة ثلاثة قرون لسان الملك والبلاط والأشراف والقضاة وظلت الحال على هذا المنوال حتى أواخر القرن الرابع عشر والقوم يؤلفون قصائد إفريقية وقد اعتذر شاعر يقصد القصيد باللغة الفرنسية عما ارتكب من غلطات اللسان بقوله عفواً عما بدر عني فإني إنكليزي.

الملوكية - حكم الملوك الجدد مملكة إنكلترا كما حكموا دوقية نورمانديا والناظم والترتيب راندهم وأخذوا يستنبطون أسرار مملكتهم واختار الملك أناساً من الأشراف (البارونات) يطوفون البلاد طولاً وعرضاً يبحثون عن الأراضي ويسجلون جميع أملاك إنكلترا مبينين لكل واحد كيف نصى الدار ومن مملكوها وكم كان ثمة من الأراضي والعبيد والعامة والأحرار والحجاج والمروج والمراعي والمطاحن مع أثمانها كلها وهكذا ألف كتاب - وبفضل هذا الإحصاء العام استطاع أن يعرف مبلغ قوته ومن هو الشعب الذي يذل طاعته وذلك من الشروط الضرورية في الحكم على ما نرى ولم توفق غير نورمانديا وإنكلترا أن يتحققاه في القرون الوسطى ثم ذكر الملك أن كل إنسان حر (لا كبار السادة من أتباعه بل جميع الفرسان) ويقسم أن يذود عن حياض أرضه ويحمي شخصه من اعتداء العدو واستطاع الملك على هذا الحال أن يجمع في جيشه جميع فرسان إنكلترا.

ولقد استخدم الملك في كل كونتيته التي قسمت المملكة بها أقساماً عاملاً وهو الفيكونت وأخذ منذ القرن الثاني عشر يبعث بقضاة جوالين وكان لدى الملك مجلس بيت بالمسائل الكبرى وقضاة يقضون في المسائل التي لها علاقة بالملك (وتسمى هذه المحكمة مقعد الملك) وقضاة للنظر في حساباته ومداخيله (وكان هؤلاء هم قضاة

الرفعة. سموا كذلك لأنهم كانوا يجتمعون حول منضدة مغطاة بيساط على صورة رفعة الشطرنج) وكان المستشارون والقضاة ونواب القراصة (فيكونت) ينصبون ويعزلون من قبل الملك ولهم الحق باسم مواليهم أن يسيطروا على أعظم السادات وأن يطلبوهم إلى التقاضي وأن يحكموا عليهم. ويحظرون عليهم أن يتحاربوا بينهم كما كان شأن أشرف فرنسا وكل من كان بداهم عدوه في إنكلترا بحجة أنه يريد أخذ حقه بيده يحاكم لأنه نقض سلام الملك ولم يكن في جميع أوروبا مملكة حازت مثل هذا النظام ولا ملك أطيع هذه الطاعة.

النبالة الإنكليزية - قسمت إنكلترا إلى محلات كبرى يقوم على زراعتها العامة والمزارعون وتسمى كل محلة بيتاً أي منزلاً وتتألف منها قرية وكان للسادات الذين يدعون بالفرنسية بارونات وبالإنكليزية لوردات عدة بيوت مجموعة في سمط واحد وملك أعظم سادات إنكلترا من خمسمائة إلى ستمائة محلة ودعوا بقلب (كومس كونت) (وبالإنكليزية آرل) وكانت هذه البيوت منبثة في أنحاء إنكلترا عامة ولم يكن للقومس كما في فرنسا ولاية هو الحاكم المتحكم فيها وحده يشهر حربها وإليه يرجع أمرها وكان قوامسة إنكلترا من الغنى على جنب عظيم بيد أنهم لم يكونوا ملوكاً كما كان أمثالهم في فرنسا.

ولقد كثر عدد الفرسان بادئ بدء فكانوا في القرن الحادي عشر ستين ألف رجل شاكي السلاح وصاحب الملك ومن العادة أن يملك كل واحد بيتاً وإذا حضر عليهم الملك أن يقاتلوا لم يلبثوا أن نسوا سريعاً المران على الحروب والذوق فيها وبينما كان الفرسان في فرنسا يحاربون مدفوعين بعامل الهوى والتلذذ كان فرسان إنكلترا منذ القرن الثاني عشر يرون خدمة الجندية وطاعة الملك فيها ضرباً من ضروب السخرة الشاقة ولذلك عت الحاجة أن يحمل الملك أرباب الأملاك أن يتجهزوا بجهاز الفرسان

ولما عرض عليهم أن يشتروا منه أنفسهم بدفع بدل مالي عن الخدمة قبل أكثرهم مقترحه والجدل أخذ منهم. وجاء زمن (١٢٧٨) أصجر فيه الملك أمره إلى نواب قوامسته أن يكرهوا جميع الرجال الذي يتجاوز دخلهم العشرين جنبها إنكليزيا على الدخول في غمار الفرسان. ولقب فارس على كثرة رغبة الناس فيه في فرنسا كان مزهوداً فيه كل الزهد في إنكلترا فيكفي هنا أن يظل أشرف الإنكليز من حملة السلاح (سلاحدار) يعيشون في الفلاة متوفرين على حرث أراضيهم وما من فارق يميزهم عن صغار الأحرار في حين كان في فرنسا لمن أراد أن يكون شريفاً أن يكون من نسل أب شريف أما في إنكلترا فيرون شريفاً كل من كان له دخل كاف ليعيش برفاهية فإن المزارع الذي اغتنى يصبح شريفاً. ولم يكن من فرق بين أشرف الحقول في القرن الخامس عشر وبين صغار أرباب الأملاك غير الثروة ولذا لم تصبح النبالة بالإنكليزية طبقة لا يدخلها غير أهلها مناقضة لسائر الطبقات كما في فرنسا.

العهد العظيم - كان الملك في إنكلترا قوياً والأشراف ضعفاء وهو على يقين بأنه ما من رجل من رعاياه يستطيع أن يقاومه ولذلك يسيء استعمال قوته فيضطر الأشراف أن يمدوه بالمال ويغتصب منهم أراضيهم وغلاتهم وماشيهم ويسجنهم من دون ما سب ويعدمهم بلا حكم. ولقد شوهد رجل يقتل لأنه ضرب أياً كان في غابة الملك وبقيت طريقة الحكم قرناً ونصفاً على هذا المنوال وانتهى الأمر بالبارونات أن بلغوا من الضعف مبلغاً لم يستطيعوا معه أن يقاموا منفردين بل اشتركوا ليقاموا تلك القوة بدأً واحداً فاعتصموا فرصة كان فيها جان سان تر في حرب مع ملك فرنسا وحاجته ماسة إلى معاضدتهم فهددوه سنة ١٢١٥ بأن يتخلوا عنه حتى أكرهوه أن يقسم لهم أيماناً علناً بأن يحترم في المستقبل جميع ضروب الحرية أي حقوق الرجال الأحرار في مملكته. وكتب وعوده في عهد دخل في ٦٣ ماجة خصه الملك بطابعه وكان هذا هو

الصك العظيم المرشد واليك المادتين الرئيتين منه: لا يوضع مال جديد على جميع المملكة قبل أن يراجع مجلسها العام. لا يوقف رجل حر ولا يحبس ولا ينفى ولا يؤذى بوجه من الوجوه ولا نقبض ولا نأمر بالقبض على أي شخص إلا بحكم على الأصول بين أقرانه وبحسب عادة البلاد. وهكذا تعهد الملك (أولاً) أن يكف عن أموال رعاياه ويعف عن أخذ حاجاتهم إلا برضاهم (ثانياً) أن يحترم أشخاصهم بحيث لا يجازيهم إلا بعد صدور حكم على الأصول.

على أن هذا العهد لم يخرج عن حد الوعد وما من قوة تحظر على الملك أن يقضها وكثيراً ما نقضه إلا أن الملك عند جلوسه يجدد هذا الوعد (وقد جدد الصك العظيم ٣٣ مرة). وهذا القسم بينه الملك الجديد على الأقل إلى واجبه وهذه الوعود مسجلة في عهد علي يعرفها كل إنكليزي يذكر للرعايا فيه أن لهم الحق أن لا يؤخذ منهم ولا يوقفوا بحسب رغائب الملك. ومن هذين الفكرين نشأ ترتيبان ابقيا عليهم حريتهم وهما مجلس النواب ومجلس المحكمين. فالعهد العظيم يقضي بأن للملك حقوقاً كما أن للأمة حقوقاً فهو أسس حريات إنكلترا.

أصل مجلس المحكمين - للملك في إنكلترا الحق فقط في أن يقضي في الجنايات ويحكم بالإعدام فهو يعين القضاة ويبحث بهم يطوفون مملكته. فلي كل سنة وفي كل بلد في أوقات معينة يأتي قاض من قبل الملك يولف باسمه مجلساً عاماً يحضره الأحرار والأشراف وسادات الكورة ويسمونه مجلس قضاء الجنايات (وقد حفظ هذا الاسم وانتقل إلى اللغة الإفرنسية) فينظر القاضي في الدعاوى والجنايات التي ارتكبت في المملكة ويسمعين باثني عشر رجلاً شريفاً ويخلفهم أن يقولوا بعدل ما يعرفونه ويبدأ بالتحقيق لكشف الغطاء عن الحقيقة ويسألهم أي المدعين محق في دعواه إذا كان المدعى عليه مجرمًا أو بريئاً يحكم في مسائل الجنايات بموجب أجوبتهم بين الخصمين

وكان يسمى هذا الضرب من الحكم التحقيق البلدي والاثنا عشر رجلاً منة الفرسان الذي أخذت آراءهم يسمون الخلفين أو المحكمين وهكذا نشأ مجلس الخلفين (ولم ينظر أولاً إلا في القضايا المتعلقة بالأموال) ومنذ القرن الثالث عشر أصبح ينظر في المسائل الجنائية) وقد اخترع القضاة هذا المجلس لسهول عملهم فكان أعظم ضمان من ظلم القضاة لأنه يطلق الحكم على المتهم للوطنيين. وما مجلس الخلفين إلا من الأوضاع في إنكلترا وعنها أخذ جميع أمم أوروبا تقريباً.

مجلس نواب إنكلترا - كانت الأموال التي تجبى للملك من أملاكه والغرامات التي تقاضى باسمه تكفي لنفقة داره والإدراج على رجاله وإذا نشبت الحرب لا تعود تكفيه بتاتاً فيكتب إلى جميع أرباب الشأن من أمته ويستدعي الأساقفة والبارونات برسائل خاصة فيجتمعون لديه ويقررون بينهم الضريبة التي يرخص للملك أن يجيها وكانت هذه المشورة مقصورة زمنياً على كبار الرجال (وهم الذين أخذوا من (جان) العهد العظيم) وفي أواخر القرن الثالث عشر سمح لكل مدينة وقصبة أن تبعث برجلين من أبنائها. ولكل مجلس مديرية أن يرسل فارسين يختارهما ولم يجيء هؤلاء النواب أولاً إلا لاستماع ما يقرره كبار السادات ليحملوا خبره إلى بلادهم ثم قبلوا في الدخول بالناقشة. وقد سمي هذا المجلس الكبير بالبرلمان (مجلس الشورى) ولا يستدعيه الملك إلا لیسأله تقريراً في جباية مال إلا أن العادة جرت بأن البرلمان قبل أن يمنح الملك ما يريد يضطره إلى سماع شكاويه وكثيراً ما يسأله إصلاح إدارته أو عزل عماله. وهذه طريقة في الحكم بالواسطة وحاول البرلمان مرات أن يجعل على الملك رقباء إلا أن هذا تخلص منهم ولم تثبت العادة في ذلك إلا أن القوم اعتادوا الاستئناس بفكر أن الواجب على الملك كل سنة أن يجمع المجلس.

مضى زمن طويل والسادات الأساقفة يدعون وحدهم فقط ولذا كانوا يجلسون على  
 انفراد ويتألف منهم مجلس اللوردات (النبلاء) وفرسان الكونتيان سكان المدن الذين  
 تبعث بهم البلاد يؤلفون مجلساً جديداً هو مجلس العموم (النواب). وإلى هذا التنظيم  
 ترجع شؤون إنكلترا فبدلاً من أن يتخذ صغار الأشراف مع كبارهم لمقاومة الطبقة  
 الوسطى (كما حدث في فرنسا) قد اتحدوا على العكس معها وظل اللوردية قرنين  
 بقودون مجلس النواب وفي خلال حرب الوردتين أفنى بعضهم بعضاً بحيث لم أنه يبق  
 سنة ١٤٨٦ غداة تولت أسرة تودور زمام ملك إنكلترا سوى ٢٥ لورداً وأحدث  
 الملك لوردات من جديد إلا أن الجدد منهم لم يحوزوا ما كان القدماء من الاعتبار.  
 وأخذ مجلس النواب في القرن السادس عشر يدبر شؤونه بنفسه ويستمتع بماله من  
 السلطة. هكذا نشأ مجلس نواب إنكلترا الذي تكفل وحده بجعل الإنكليز يتأمن من  
 الدفاع عن حقوقهم من الاستبداد الملكي فالبرلمان هو من الأوضاع المتكررة خاص  
 بإنكلترا حداً جميع الأمم الممدنة أن يروا من الشرف هذا مثاله.

الأمة الإنكليزية - امتزج الكونيون والنورمانديون كل الامتزاج في القرن  
 الخامس عشر فتألفت منهما الأمة الإنكليزية بعد أن كانا شعبين متباينين وأصبحت  
 لغاتهما لغة واحدة جديدة وهي اللغة الإنكليزية والتي أصلها اللغة الكونية القديمة  
 وهي لغة الشعب وتشبه لغة الأقاليم التي لا يزال ألمان الشمال يتكلمون بها إلى اليوم.  
 أما اللغة الفرنسية لغة الشرفاء فإنها لم تأت إلا بألفاظ علمية ومصطلحات في الحقوق  
 السياسية والفلسفة (بيد أنها فترعت في النطق بحيث لا تكاد تعرف) فامتزجت اللغتان  
 حتى بات من المتعذر تركيب جملة إنكليزية بدون الرجوع إلى الكلمات الكونية.

وما كانت الأمة الإنكليزية في أواخر القرن الخامس عشر أمة رجال البحر والتجارة  
 كما هي اليوم وما من شيء كان يدل على ما يكون مصيرها فقد كانت المدن صغيرة

حقيقة إلا أربع منها فقط يزيد سكانها على عشرة آلاف نسمة حتى أن صوف الغنم الإنكليزي لم يكن ينسج في إنكلترا بل يبيعه الإنكليز من حاكه فلا ندر على نحو ما تقدم أستراليا اليوم صوفاً للمعامل الإنكليزية وما كان لهم بعد أسطول ولا ملاحون وهم عبارة عن فلاحين ومربي حيوانات ومع هذا فقد كان يلاحظ الناظر فيهم صفات تكون أمة عظمى ألا وهي النشاط وفكر الاستقلال وبطل القصائد الإنكليزية روبين هود زعيم اللصوص عاش في الغابة يقتل حراسها وبطل الشحنة ومع هذا كان يوجد على فقراء الأكارين وقد صادف ذات يوم على جسر جان الصغير الذي لم يرض أن يذل له فأخذا يقتلان بالعصي حتى رنت عظامهما فسقط روبين في الماء وهكذا أصبحا أحبباً وأخذ الإنكليز يحبون هذه المقاتلات التي يخرج منها المقاتلان وقد كسرت ثيابهما وانثلمت خاصرتهما واليك المديح الوحيد الذي مدح به أمته أحد أشراف الإنكليز السير جون فورتسكو: كثيراً ما شوهد في إنكلترا ثلاثة أو أربعة من اللصوص ينقضون على سبعة أو ثمانية من أبناء الحشمة ويقتلونهم بأجمعهم أما في فرنسا فلم يشاهد سوى سبعة أو ثمانية من اللصوص ليس لهم من الجرأة إلا ما يستطيعون معه ثلاثة أو أربعة من أهل العرض ولذا كان المصلوبون من الرجال في إنكلترا خلال سنة بنعوى اللصوصية والقتل أكثر مما كان في فرنسا محكوم عليهم منهم بمثل هذه الجرائم مدة سبع سنين. ولذا احتاج هؤلاء الإنكليز حاجة لا تغالب إلى الاستقلال. قال هذا المؤلف بعينه: إن الملك لا يستطيع أن يحكم على هذه الشعوب بغير القوانين التي أقرروا هم عليها ولذلك لا يستطيع أن يجني منهم ضرائب بدون رضاهم. ثم قبل بين رفاهية الفلاح الإنكليزي وشقاء الفلاح الفرنسي فقال أن كل ساكن في هذه المملكة يتمتع بالثمرات التي تأتيه به أرضها وماشيتها يعملها كما يشاء وما من أحد يحول دونه ودون الاستمتاع بها اغتصاباً ولا يطلب قط إلى

التفاصي إلا أمام القضاة العاديين وبحسب قانون البلاد ولذا اغتنى أهل هذه الديار  
فصلكوا الذهب والفضة وجمع الحاجيات فتراهم لا يشربون ماء بنة اللهم إلا أن  
يكون ذلك على سبيل التوبة ويطعمون لحوماً وأسماكاً بكثرة وأقمشتهم من جيد  
الصوف فهم أغنياء بأثاثات بيوتهم وبأدوات الزراعة وفي كل ما من شأنه أن يجعل  
الحياة وديعة.

### مدن القرون الوسطى

الفتح الألماني - تحلت الشعوب الجرمانية مهاجرة إلى الغرب لتدخل إلى الإمبراطورية  
الرومانية عن بلاد الشرق لشعوب من عصر آخر وهم السلافيون (الصقالبة) حتى  
لقد غدت جميع البلاد الواقعة شرقي الألب ملكاً لقبائل من السلافين وقد صادف  
القديس بونسياس حتى على شواطئ الفوادا أناساً من السلافين هزوا منه وسخروا  
وبقي ما وراء ذلك من مستنقعات شواطئ بحر البلطيق شعوباً قديمة (كالبروسيين  
والليتوانيين والفنلنديين) وهو الشعوب وثنية محاربة ولكنها ردينة السلاح منقسمة إلى  
قبائل لا قبل لها بالمقامة فشرع الألمان في تصيرهم وإخضاعهم وأنشأ ملكوك جرمانيا  
بلاداً على التحوم وأطلقوا لقومها حرية الحكم كما يشاؤون ومن هذه البلاد نشأت  
الثلاث إمارات الألمانية الرئيسية وهي إمارة براندبورغ مملكة بروسيا وإمارة ميمني  
وسط مملكة الساكس والإمارة الشرقية في جنوب مملكة النمسا وأسسوا أيضاً  
أسقفيات بعثت من قبلها المرسلين.

أخذ النصر يجري ببطء (من القرن العاشر إلى الرابع عشر) بطرق مختلفة فدان  
بالمحية أمراء الصقالبة في معظم البلاد على أيدي نساتهم اللاتي تنصرن وحطموا  
الأصنام وأكروهوا رعاياهم على قبول الدين المسيحي وكان من يتناول اللحم في  
الصوم الكبير من أهل بولونيا تقلع أسنانه عقاباً له. وبقي السكان في تلك البلاد

صقالبة. ونال زعيمهم الوطني لقب دون أو ملك ويعترف أنه من عمال الإمبراطور ولم تكن معظم هذه الأمم على شيء من التعصب ولما جاء برنارد الإسباني إلى بومرانيا لينال الشهادة أخذ في تحطيم الأصنام المقدسة فاكتفى الوثيون بضربه واذ قد ظل على الدعوة الدينية اركبوه على قارب في فر الأودر قائلين إذا كنت كثير الرغبة فيما أنت أخذ نفسك بسيله فإذهب لبث دعوتك بين الأسماك والطيور.

وعلى العكس ثمرد بعض الشعوب في الشمال فإن الأوبترين ذبحوا ملكاً يريد أن ينصرهم (١٠٦٦) وبعد ذلك قام الليفونيون وكان آتاهم الفرسان الألمان وعدوهم مكرهين يسرعون في أثر الجيش يلقون بأنفسهم في فر الدونا ليجلوا من العماد وعلى أولئك أعلن الألمان حرباً أبادهم فيها وقد فتح قوامسة الرهينة التوتينية بلاد بروسيا وفرسان حملة السيوف ليفونيا وليستونيا فكانوا يحرقون القرى ويذبحون الرجال ويعودون بالنساء والأولاد وقد كثر بيع الأسرى السلافيين في بلاد ألمانيا كلها حتى أصبحت كلمة سلافي في الإفرنسية والألمانية مرادفة لكلمة عبد وبقيت كذلك وقد باد الوانديون (ولم يبق منهم إلا بقايا لجأوا إلى مستنقعات سيرى وعاد البروسيون والليفونيون رعايا هكذا فتح العنصر الألماني ثلاث ولايات جديدة براندبورغ وبروسيا وليفونيا).

الاستعمار الألماني - كانت السهول العظيمة من نهرى الأودر والفيستول منخفضة رطبة ومغشاة بغابات وسط البطائح فولاية براندبورغ (رملة ألمانيا) لم تكن غير صحراء كنية من الرمل ولا يزال الرمل إلى اليوم عندما يهب الريح يسد أبواب البيوت وعند شيخ البلد في أرض فلامن مفاتيح عين البلد يوزع كل صباح على السكان ما يحتاجون إليه من الماء فاستدعى أمراء الألمان والسلافيون من ألمانيا فلاحين وأرباب صنائع يأتون إن أحيوا لزراع هذه الرمال واستثمار الغابات وتأسيس المدن

وأنشأ الألمان بهاجرون عن رضى خلال فرنين وأتت ألوف من السر ألمانية تنوطن في القفار الشاسعة من الشرق كما يذهب الناس في أيامنا لاستيطان صحارى أميركا الشاسعة. فكان الأمير يبيع من أحد الملتزمين قطعة من غابة أو طريدة من الأرض تكفي لإنشاء قرية فيجلب الملتزم فلاحين ويوزع عليهم الأراضي حصصاً حافظاً لنفسه مالاً ويحببه في أوقات معينة فيكون حاكمهم الوارث إلا أن الفلاحين يقون أحراراً لأنهم هم الذين أحيوا موات الأرض ويحفظون بعادتهم الألمانية. وإذا أريد تأسيس مدينة يقيم لها الملتزم خنادق وحوائط في جهاتها الأربع ويؤسس فيها سوقاً يحفظ لنفسه الحق أن يأخذ منهم رسوماً. جرت هذه الأعمال على مهل تحت طي الخفاء ولقد شغل مؤرخو تلك الأيام بذكر حروب الأباطرة فلم يفكروا بأن يلصوا في الصورة التي جرت في تأسيس ألوف من القرى ومئات من المدن في براندبورغ وبوميرانيا وبروسيا وسيليزيا وبوهيميا. ونشأت في الجهة الأخرى من غم الألب ألمانيا حديثة ألمانيا العاملين والجنود ألمانيا النمساويين والبروسيين الذين آل إليهم فيما بعد أمر جميع أمم ألمانيا القديمة.

المدن الحرة - أسست المدن الرئيسية في ألمانيا حول قصر الملك أو حول بيت أسقف أو أمير فالملك أو الأسقف سيد المدينة والتجار مستأجرون لأن أرض المدينة ملكه وأرباب الصناعات عبيده يعملون له ولرجالهم وفرسانه وخدامه يحكمون على الصناع والسوق. وكلمة نفا الشعب يتخلى الملك عن النظر في شؤون السكان حتى انتهت الحال أن لا يتناول سوى رسوم مقررة من الصناع أخلاف العبيد فلم يعد في المدن سوى رجال أحرار فالمدن التي زاد نجاحها في القرن الثاني عشر هي من أملاك الأساقفة جاء في المثل الألماني ما أحلى عيش المرء في ظل العكاز فيجمع الأسقف خدامه وأهم التجار في مجلسه ليحكموا مدينته ولم يكن هذا المجلس سوى مجلس

للأسقف. ولما قوى نفوذ المدن في القرن الثالث عشر وطردت أساقفتها أصبح ذاك المجلس مجلس المدينة وغدت له سلطة أمير فكان يقضي ويشهر الحرب ويخاطب الإمبراطور مباشرة وتسمى المدينة المدينة الحرة لأنها لم تخضع لسيد.

الصناع - قسموا الصناع إلى طوائف منذ كانوا عبيد الأسقف يعملون له ولرجالهم وكل طائفة تؤلف من صناع يحترفون حرفة واحدة ويخضعون لأحد خدام الأسقف وتسمى مهنة (أي خدمة) وزعيمها وكيل المدير أو شيخ الحرفة وذلك مثل مهنة الحدادين ومهنة السروجيين ومهنة الخياطين وغيرها ومن هنا اشتق اسم صنعة بالمعنى الذي نطلقه عليها وأصبح أرباب الصناعات أحراراً بالتدريج فبدلاً من أن يصنعوا لسادقهم وهم يعولونهم يعملون لحسابهم ويبيعون ما يعملون في السوق ظلوا منظمين طوائف بحسب الحرف ويتألف من كل حرفة جماعة ولهم صندوقهم العام وعلمهم الذين يحملونه في الحفلات ويرفعونه إذا خرجت المدينة لقتال ولهم حاميتهم المقلس (ويسمون في فرنسا شيوخ الحرف) ولهم نظامهم بحسب عادة القرون الوسطى كانت عادات لا حاجة لتدوينها. وفي فرنسا لم تدون عادة صناعات باريز إلا في أواسط القرن الثالث عشر وهذا القانون يبين الشروط التي يقبل بها المرء في هذه الصناعة. فيبدأ الولد بأن يكون خريجاً على معلم في الصناعة فيعلمه المعلم صناعته ويطعمه ويؤويه فالخريج يعمل لحسابه ويخضع لها وللمعلم الحق بأن يضربه وبعد بضع سنين يصبح الخريج رقيقاً ولا يزال يعمل باسم معلمه وله أن يغادر معلمه ويذهب إلى غيره فالرفقة هم أناس متقلون وكثير منهم يتقلون من مدينة إلى أخرى يعرضون على أرباب الصناعات أن يشتغلوا معهم وبقيت هذه العادة جارية في فرنسا في تنقل صاحب الصناعة في أطراف البلاد. ومن كانوا على شيء من الغنى يفتحون حوانيت ويصبحون معلمين ولهؤلاء فقط الحق في أن يعطوا آرائهم في مجلس أهل الصناعة

وتبين القوانين كيف يجب العمل ويحظ على العمل أن يشتغل في غير دكانه وبذلك يتيسر للجمهور أن يراقبه. ويحظ عليه أن يعمل تحت نور الصباح حتى لا يعمل عملاً رديناً ويمنع من استعمال مواد أخرى أو عمل أشياء تخالف القدر الذي أمر به القانون فالصياغ مثلاً لا يطلون الذهب بالفضة وصناع التماثيل لا يحملون إلا أجناساً مخصوصة من الخشب وإذا كان ثوب الجوخ أكثر أو أقل عرضاً من مقياس المقرر يصادر ويغرم صانعه ويحفظ أهل الصناعة بشرفهم وشرفهم أن يبيعوا إلا بضائع حسنة السرد والتقدير ولذا كان يراقب بعضهم بعضاً أشد المراقبة ثم أقم بعضهم بعضهم بعضاً أمام العرباء وأمام سائر أرباب الحرف وليس لأحد في المدينة الحق أن يصنع سلعة أو يبيعها إلا معلمو الصناعة فيغرم كل رجل يفتح دكان خياط قبل أن يقبل في صناعة الخياطين وتغلف دكانه فحق عمل شيء من الصناعة وبيعها ملك خاص لأهل تلك الصناعة فالخياطون يمنعون باعة الخلق (الأسمال) من بيع ثياب جديدة لأن لهم وحدهم الحق في عمل ذلك وما عمل باعة الخلق إلا أن يبيعوا ألبة عتيقة وصانعو اللحم يتقاضون على السروجيين ليمنعوهم من عمل اللحم وذلك لأن صناعات القرون الوسطى كانت تحاذر من المنافسة كثيراً.

وأهم أرباب الحرف هم الخبازون والقصابون والحاكة والصباغون والبنائون والدباغون وصانعو الأسلحة والنجارون وعدد الصناعات متوقف على مكانة المدينة وليس في كثير من المدن الألمانية سوى ١٨ أو ٢٠ صناعة وكان في باريز زهاء مئة حرفة وذلك لأن عدة صناعات مختلفة يمكن جمعها في صناعة واحدة أو أنه يتيسر تجزئة الصناعة الواحدة إلى عدة حرف (في باريز مثلاً ثلاث حرف لصناعة السباحات).

## أو مجموعة كتب أحمد زكي باشا المصري

ليس في بلد الإسلام بلدة كعصر ضلعتها بنهضتها وضارعتها برجالها. ولا أرض كتب لها أن اقتبست من مدينة الغرب القدر الكافي الذي قام منذ نحو قرن بفضل عصابة فاضلة تشعبت بالحضارة الحديثة والحضارة القديمة فأنت من جلائل الأعمال ما أعجب به البعيد والقريب.

واسم أحمد زكي باشا أمين سر الوزارة المصرية (سكرتير مجلس النظارة) وأحد نوابغ مصر في هذا العصر يجب أن يثبت في القائمة الأولى من أسماء أولئك العاملين الأخيار. ربما تقول بعض الحاسدين (وهل خلا يوم ذو نعمة من حاسد جاحد) :- إن عين الحب رمداء، فأنت يا هذا تتود بأصدقائك كثيراً في حين يترهم المصنفون منازلهم، ويترنومهم بمعيار نراك لا تحسن استعماله. فلا تستهويهم المحبة في نقد رجالهم وتقدير أعمالهم وجوابنا لمن يقول هذا ويدعي أن زكي باشا يعرف فقط كيف يظهر لقومه مسائل يحسنها: إن من حفظ حجة على من يحفظ، ونحن قد نظرنا في أكثر أعماله العلمية منذ زهاء اثني عشرة سنة وأطنا التأمل في كنهه تأليفاً كانت أو ترجمة وفي مقالاته ومحاضراته وحكمنا العقل ونبذنا الهوى ثم انقلبنا ونحن على مثل اليقين بأن أمثاله قلائل في مصر والشرق، وأنه عامل أمين في خدمة أمته، ولغته جدير أن يقرن في العلم والعمل مع نظرائه من أساتذة الغرب.

أمثال صديقنا هذا وهم لا جرم صفوة أجيال أنت على مصر وهي تنهض حتى وصلت بفضل حكومتها - لا التي تناهض أبناءها الراشدين بل تأخذ بأيديهم - إلى هذه الدرجة من الرقي ويمتاز على كثير من الخاصة بمضائه ونشاطه. عرفه بذلك قومه وهو يافع فشاب، وهو اليوم كذلك في سن الكهولة. وقد وصل بجده وعصاميته إلى المناصب العالية، فلم تشغله الزخارف والبهارج عن السير بما أخذ النفس به من

التعلم والتعليم مند وعى ورشد. وأكبر دليل تقدمه على إثبات دعوانا هذه خزانة كتبه التي جمعت فأوعت من نفائس القدماء والمحدثين والشرقيين والعربيين ولا عجب فاختيار المرء شاهد عقله :

قد عرفناك باختيارك إن كما ... ن دليلاً على اللبيب اختياره

بدأ زكي باشا بمرثومة مكتبته وهو تلميذ بمدرسة الحقوق الخديوية سنة ١٨٨٣ فكانت النقود التي كان يعطيه إياها أخوه محمود بك رشاد رئيس المحكمة الابتدائية الأهلية بالقاهرة سابقاً يشتري بها كتباً إفرنجية مما يستطيع التلميذ أن يقتصده من نفقته أما الكتب الثمينة فكان أخوه يشتريها له فيضم إليها الكتب التي كان أخذها من المدارس وجوائز ومن الأساتذة الفاحصين على سبيل التشجيع ومن ذلك تولد فيه الغرام بالكتب كما قال لنا عن نفسه.

فمكتبته والحالة هذه جمعت انتخاباً واختياراً. وما برح يضم إليه من الكتب العربية والإفرنجية التي يمكن أن تفيد الإنسان في مباحث عمومية ترجع إلى ارتقاء الشرق ولما قرأ التواريخ وتحيل الخد الكبير الذي أقله العرب في مدينتهم من غير أن يقف على تفاصيل ذلك حدثته نفسه بأن يجعل خزانة كتبه مرجعاً لمن يريد إرجاع الخد إلى الشرق. ولذلك كان يقني كل كتاب كان يصل إليه أو يقع تحت طاقته حتى يكون منها مجموعة ابتدائية فكانت أكبر مساعد للاستمرار على تكثيرها.

ولما دخل صاحب هذه الخزانة في خدمة الحكومة أخذ يخصص نصف راتبه الشهري لمشتري الكتب والنصف الثاني لسائر حاجياته وكثيراً ما كان يزيد النصف المخصص لابتياغ الكتب على نصف الضروريات وما برحت أكثر ديونه إلى هذا العهد إلى الوراقين والطابعين وبناعي الكتب الجليدة والعتيقة في أوروبا ومصر. ولما سافر إلى أوروبا أول مرة سنة ١٨٩٢ رجع ومعه غنيمة كبرى من الكتب وكلها إفرنجية مما

يلزم الشرق وبعد ذلك اتسعت أمانيه وأصبح همه أن يكون لخزافته مزية حتى غدت الآن تستحق أن تكون مرآة يرى فيها الطالب معارف الشرق وعلومه سواء كانت من نضات الشرقين العرب مسلمين أو غير مسلمين أو قرائح الإفرنج. وأكثر كتب الإفرنج عنده بالإفرسية ومنها ما كتب باللاتينية والألمانية والإنكليزية والإيطالية. وهو يحس الفرنسية إحسانه بالعربية وله إمام بالإيطالية والإنكليزية والإسبانية يستعين به في معرفة ما قد يحتاج إليه أثناء مباحثه. ولطالما سمع الخطبة العلمية في الجمعية الجغرافية الخديوية التي هو وكيلها باللغة الفرنسية فنقلها ارتجالاً إلى العربية وبالعكس من العربية إلى الفرنسية ولطالما فعل ذلك في مؤتمرات المشرقين في أوروبا وهو ينوب عن الحكومة المصرية فيها. وهذا من جملة الأسباب التي كثرت بما صلاته مع علماء المشرقيات في الغرب حتى لا يكاد إمام من أئمتهم إلا ذاكره في الموضوع الذي يغلب عليه واستفاد منه.

وما زال صاحب هذه الخزانة يسعى وراء غايته كلما ذب إلى أوروبا في مهمة علمية فيعود بنفائس الكتب وغرائبها مما يرجع كله إلى إظهار حضارة العرب وفضلهم حتى اجتمعت إليه الآن معظم الكتب العربية التي طبعها علماء الإفرنج المشرقين منذ القرن الخامس عشر للميلاد إلى يوم الناس هذا. وحصل أيضاً على مجموعة نادرة تحوي كل التراجم أو المباحث التي خاض غمارها علماء الفرنجة ولا سيما ما يتعلق منها بالعرب والإسلام وقد زار سورية زيارة رسمية عقاب انتشار الدستور العثماني وكان لبناء دمشق حظ وافر من الأخذ من معارفه وانتفع ناشتاً بحديثه وخطبه الرنانة وأعجب الخاصة من القوم ببيانه وتحقيقه العلمي وودوا لو زار سورية كل سنة واحد من أمثاله فتوحى إفادتها وتعليمها.

ذهب إلى الآستانة مرات فوجد المجال فسيحاً فيما هو بصدد من إحياء آثار العرب ووقع على كنوز في مكاتيبها قلما وفق للاطلاع عليها أحداً قبله. وتعاونتة حسين حلي باشا الصدر الأسبق تيسرت له المطالب وفتحت له الأبواب بعد الحرية العثمانية واشغل كما يشاء. ولما علم الجناب الخديوي بالأمر عاونته على ما اخذ النفس به ولا عجب فالحكومات الرشيدة تعرف أن لا روق لبلادها بدون علم. والعلم في الشرق لم تقم له سوق نافعة إلا في ظل الملوك العاقلين فإن تنشيطه من خصائص الجمعيات والأمراء المفصلين. على نحو ما كان في العرب ولا يزال إلى عهد قريب. فرأى صديقنا (وذلك مذهبه منذ القديم) أن الناسخ ماسخ لا يعول عليه في نقل الكتب النادرة فاستحسن النقل بالفوتوغراف ليكون لديه الصل برمته. واستحضر من سفرته هذه زهاء مئة كتاب بالتصوير الشمسي وكلها نفانس كان يظن أنها مفقودة. فلما رأت الحكومة المصرية هذه الهبة الفاتحة وبجئت في هذا العمل الجيد كان أول مظاهر له الجناب الخديوي ورئيس الوزارة الحالي محمد باشا سعيد وناظر معارف مصر أحمد حشمت باشا فأحبوا أن يكون الشرف كله لمصر لا لمصري واحد، خصوصاً ومصر اليوم هي المكلفة بإحياء مجد العرب ووراثة تراثهم المأمونة عليهم.

فرأى أمام هذه العناية العالة أن يقدم هدية لأمته وأهل بلده فأوقف مكتبته كلها ولا يقل ثمنها عن اثني عشر ألف جنيه بمكاتيبها وخزانتها وقماطرها وكراسيها وكل ما يتعلق بها. فأكبر الجناب الخديوي هذه الخدمة فأصدر أمراً بتخصيص قسم مستقل من دار الكتب الخديوية منعزلاً عنها وخصوصاً بأحمد زكي باشا يشغل فيه طوال حياته لنفع أمته وبلادده. والذي حدا الوراقف عن هذا العمل منذ الآن أنه خشي أن يأتيه القدر المحتوم فجأة فيبدد كنه أيدي سباء خصوصاً وقد رأى العبرة بعينه في كتب

علي باشا مبارك والأمير محمد إبراهيم والشيخ رضوان العفش وحسين باشا حسني وغيرها من المكاتب المصرية الخاصة التي اشترى بعض نفانسها وضمها إلى خزانته. فأوقف ما يملكه منذ اليوم وأخرجه من داره قال: أخرجت المكتبة من ملكي حتى إذا جاءني أمر ربي ذهبت وليس في النفس حاجة. لأن ثمرة عمري وهي المكتبة موضوعة في كلاءة الأمة والحكومة فلا يعث بها وارث ولا شبه وارث خصوصاً وأني أعتقد أن من يوقف شيئاً على الخير يؤجل نفاذه إلى ما بعد موته لا يكون له الحق في طلب الثواب عند الله لأنه ترفع مما آل إلى ورثته. واني أحب تجديد العمل بالسنة الشريفة. فقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أي الصدقة أفضل قال: أن تنصدق وأنت صحيح حريص تأمل الغنى وتحشى الفقر ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان (رواه البخاري في صحيحه).

لم يقف الواقف عند هذا الحد بل إنه ما برح في كل يوم وفي كل شهر يشترى كتباً من أوروبا ويستحضر الأسفار الثمينة بالفوتوغرافيا نت الآسنانة ويضم هذا وذاك إلى مجموعته النفيسة ليكتفي الباحث بما فيها عن غيرها. ومن مميزات مكتبه إنها تضم أمهات الكتب في كل فن وعلم ومطالب لأن جامعها أراد أن يغني بما عن الرجوع إلى دار الكتب الخديوية. وفيها كتب كثيرة من المطبوعات في مصر والهند والعراق والشام وغيرها مما لا يكاد يوجد في دار الكتب الخديوية. دغ الكتب الكثيرة المحفوظة التي حوتها وقلت نظائرها في دار الكتب الكبرى هذا مع حفظ النسبة الاعتراف الصحيح بأن دار الكتب الخديوية بالنسبة لهذه الخزانة أوسع مادة وأغزر قيمة ولكن خزائن الأفراد قد يكون فيها من النوادر والوفاء بالحاجة ما لا يسقط على مثله في الخزائن العامة. وكيف يكون وجه للمفاخرة بين مجموعة جمعها رجل فرد بوسائله الذاتية وهو لم يرث عن أهله قرشاً واحداً وبين دار كتب هي مجمع ما بقي مما

خلفه السلاطين والملوك والأمراء وأهل الثروة والكرام من أعين المصريين. قال صديقنا في عظمة دار الكتب الخديوية: وناهيك بمكتبة نفتحها إسماعيل بنفحاته، وتولاها توفيق بعناياته، ثم شملها عباس برعاياته. ولا يمكن التخصيص على تعيين ما عنده من النفائس ولطالما شهد عمال الكتب الخديوية أنفسهم على ما فيها من الذخائر والأعلاق ويكفي أنك مها درت في ديار مصر وقلبتها من أدناها إلى أقصاها من دور الحكومة الرسمية ومعاهد العلم العمومية حتى لو ذهب إلى الدفتر خانة المصرية لا تجد فيها أثراً لجريدة الوقائع المصرية التي كانت تصدر في أوائل عهدها أيام محمد علي. ولكنك إذا أتيت الخزانة الزكية تجد قسماً عظيماً منها وتقرأ فيها المعجب المطرب مما يدل على حالة البلاد في تلك الأيام وأنت لو التفت بالنكاش في تضاعيف الكتب أو بمسألة الشيوخ لا تصل إليه بته هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة. وتمتاز هذه الخزانة بأنها تجمع الكتاب النفيس بما تعلق عليه من الأدوار والأطوار فتجد منه مخطوطاً بخط اليد أولاً ومطبوعاً ببولاق ثم نسخة مطبوعة منه في الشرق والغرب إن لم تجد ترجمته إلى اللغة الفرنسية في الغالب أو الإنكليزية أو الإسبانية أو اللاتينية أو الإيطالية أو الألمانية. ثم الكتب التي كتبها جهابذة العلماء على الكتاب أو على المؤلف. بحيث أن الباحث يتيسر له والحالة هذه أن يستوفي موضوعه بأسهل شيء وأن يكمله بحسب حاجته ومقدار همته.

ومن الكتب المخطوطة النادرة عنده أربعة أجزاء لا بن عساكر وأربعة أجزاء مرآة الزمان لابن الجوزي ونسخة كاملة من تاريخ ابن خلدون عليها خط الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ونسخة من الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي ويظن أنه يجتري على فصول كثيرة اضطروا إلى حذفها من النسخة التي طبعت في بولاق لأن فيها ما فيها مما يختص بمحمد علي ولكنه لم يحقق ذلك بطريقة يقينية غير أن ضخامة الجزء

تجل الظن أقرب إلى اليقين خصوصاً والصفحة من المخطوط تعادل ثلاث صفحات من المطبوع على الأقل فتريد باقل تقدير ١٥٣ صفحة من المخطوط وإذا أضيف إليها ٤٠ صفحة من المخطوط أيضاً فيكون المجموع المطبوع في النهاية العظمى ومع التسامح الزائد معادلاً لألف صفحة من المخطوط وربما كان ما بقي بعد ذلك من المخطوط هو عبارة عن مجموع الفصول والجمل والعبارات التي استصوبوا حذفها من الأصل لبعض الاعتبارات وذلك يعادل خمسين صفحة من نسخة بولاق المطبوعة سنة ١٢٩٧ هـ ومن الغريب أن صاحب النسخة المطبوعة نص على أن طبعته بلا زيادة ولا تحمين ولا إجادة ولكنه لم يفصل هذا الجمل ولم يقل لنا أنه لم ينقص منها شيئاً. وفيها مجموعة الكتب التي صدرت في بولاق وفي مطبعة أركان حرب الجهادية المصرية وفي مدرسة الطب المصرية. وما يجب إلفات النظر إليه في هذه المناسبة أن محيي مصر محمد علي كان يأمر بأن يذكر في كل كتاب طبع بعهدده بأنه هو الثاني أو الثالث أو الرابع من نوعه. يعرف ذلك من النظر في كتب زكي باشا. فعند قاموس اللغة العربية، والطليلية مطبوع في زمن محمد علي وهو ثاني كتاب ظهر في مطبعة بولاق الأميرية أم الكتاب الأول الذي طبع في بولاق لا نعلمه وليس لهذا الكتاب أثر في الخزائن الأخرى ذلك عدا الكتب المطبوعة في ديار الشام والجزيرة (الموصل) وتونس والجزائر ومراكش وجزيرة مالطة وغيرها.

ومن مبرراتها أن فيها مجموعة من المجلة الآسيوية الباريزية منذ أو عدد صدر منها سنة ١٨٢٢ إلى الآن، ونسخة من لسان العرب على ورق الكتان، وفيها أكبر مجموعة في الشرق لما كتب عن اللغة العربية مما هو من أبحاث علماء الشرق وعلماء الإفرنج بحيث أن الحكومة المصرية تجد فيها كل ما يلزمها في وضع معجم للشوارد والأوابد والضوابط والروابط ولمصالحات العلوم والصنائع والفنون على ضرورها وفروعها حتى

تكون تلك الدواوين رجعاً يعود عليه كل عربي في كل موضوع ومصطلح يوم تصح عزيمتها على إبراز هذا الأثر النفيس الخالد.

ومن الكتب النفيسة كتاب الفتوة في الإسلام وفيه أبواب في مكارم الأخلاق بحسب الطريقة الإسلامية وينتهي بفصل طويل في مجالس الفتوة ونظامها الداخلي وهو أشبه شيء بنظام الماسون واصطلاحاتهم ورموزهم وأعمالهم وقبول الجانب في زمريهم. وهو فصل مهم ولا يوجد هذا الكتاب في مجموعة أخرى فيما نعلم. ومنها كتاب تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الواقد الذي تكلمنا عليه منذ بضع سنين في مجلة المقتطف وهي النسخة الوحيدة المعروفة من الكتاب.

ومن مميزات كتب الطب المطبوعة في أوروبا بالعربية والإفريقية، ومنها ما يتعلق بالفلسفة والعلوم كالكيمياء والطب والفلك والميكانيكا والآلات الروحانية (المفرغة من الهواء) وكتب ابن سينا ومنها القاتون وجزء من الشفاء مطبوع في مدينة رومية سنة ١٥٩٣ بعد اختراع الطبع بحدّة قليلة ويتلوه كتاب النجاة في المنطق.

ومن مخطوطات هذه الخزانة قطع من تاريخ الدولة الأموية من أول خلافة الوليد بن عبد الملك إلى انقراض الدولة العباسية وهي على رأي صاحب الخزانة أوفى تاريخ معروف لهاتين الدولتين ويظهر أن المؤلف كتب كتابه في مصر عقب انقراض الدولة العباسية مباشرة لأنه يشير إلى شيخه وأستاذه ابن الأنجب الساعي. ومنها تاريخ محمد علي باشا مؤسس الأسرة الخديوية للشيخ خليل بن أحمد الرحبي بعثه علي وضعه الشيخ محمد العروسي يحتوي على حالة مصر قبل الفرنسيين وحالة أمراتها وأخلاق محمد علي وعلى إخراجها من كان بمصر من المقمدين من المماليك وغيرهم وعلى تعميرها لأرض مصر وإحياء قطرها بالزرع وعلى بعض آثاره من البنية والعمارات وعلى ذكر إحياء الدولة المكتبة المسلمين وعلى ما انشأه من السفن وعلى ذكر

العساكر الجهادية ووجوب اتخاذهم بالأدلة الشرعية والسؤال عن القوانين الموسومة للعساكر الجهادية هل هي مطابقة بعد للشرع الشريف أم لا.

ومن مخطوطاتها الدر الثمين في تاريخ اليمن في أيام الإمام محمد بن عايظ، وكتاب روح الروح فيما حدث بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح في اليمن. وفي الخزانة كتب منقولة بالفوتوغرافيا وهي من الأمهات أو النوادر ولا بأس أن نشير إلى بعض ما حوته خزانتنا الزكية من الكتب المأخوذة بالتصوير الشمسي فمنها تاريخ السودان في أيام محمد علي وكتاب الحجارة والحجازة للصفدي ونسختان من الهدايا والتحف للخالدين ومختصر ذخيرة ابن بسام للأسد بن ممان والتذكار الجامع لمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار وهو التاريخ الوحيد في ما نعلم الذي ألف في هذه المملكة على انفراد. والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (في ثلاثة أجزاء) والبصائر الذخائر له أيضاً (في خمسة أجزاء) ومقدمة ابن خلدون وفيها تصحيح المؤلف وخطه. والشعور بالعمور وهو قاموس لأعظم المشاهير الذين أصيروا بفقد إحدى أعينهم. وصح الأعرشى نسخة كاملة سبع مجلدات فرغ المؤلف منها سنة ٨١٤ وهذه النسخة مكتوبة سنة ٨١٧ وهي أجود من النسخة المتوردة الموجودة في دار الكتب الخديوية وروايات المرزبن وأعلام الميرين لابن سعيد الأندلسي.

ومن المخطوطات رحلة الشيخ محمد بشير البرتلي من بلاد توات إلى الحرمين وصف فيها الصحارى والبلاد في القرن الثاني عشر للهجرة وقطعة منقولة بالفوتوغرافيا من كشف البيان عن وصف الحيوان، وهو موسوعات ألفها فتح الله السكندري الذي كان في أيام السلطان الأشرف برساي وهو عبارة عن ستين جزءاً موجودة بخط المؤلف في المكتبة السلطانية وفي مكتبة طوبقو بالآستانة. وفي هذه القطعة معلومات وافية غريبة عن المؤلف والمهم ذكر قائمة الكتب التي نقل عنها وهي تربو على الثلاثة

آلاف كتاب. من المخطوطات من عيون التواريخ لابن شاكر جزآن (ومنه عدة أجزاء في المكتبة الظاهرية بدمشق وكتاب ما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه وأرجوزة الصفدي في جميع من حكموا دمشق الشام على عصره ورسالة أخرى في ذات الموضوع على ترتيب حروف الهجاء وفي المكتبة الأهدية في حلب) ومن المنقول بالفوتوغرافيا سير أعلام النبلاء للذهب أصله في أربعة عشر جزءاً ضخمة وكان موجوداً في القاهرة وفيها فقد الجزء الأول والثاني ثم انتقلت النسخة كما قال زكي باشا في جملة ما انتقل من كتب مصر إلى القسطنطينية وهناك ضاع الجزء الأخير فبقي من الكتاب ثلاثة عشر جزءاً. ومن المخطوطات كتاب الداني في حروف المعاني لبدر الدين ابن أم القاسم ومنها التحفة الوردية للعلامة عبد القادر البغدادي وهو كتاب مفيد جداً بالأدب وحبسنا في التعريف به نسبه لمؤلفه. وألطف ما فيه ما كتبه المؤلف بخطه في آخره:

قابلها مؤلفها وصحح ما تيسر منها فإن كاتبها لا يكاد يكتب كلمة صحيحة لا بآراء الله فيه فإنه أتعبني في تصحيحها من غير نسخة فإن الأصل كان عنده ليكتب منه ستكتب هذه النسخة كان مسافراً نفع الله بما من كتبت لأجله وهو الوزير الجليل والصدر النيل عبده باشا الشهر بنشأني باشا لطف الله به في الدارين آمين. قاله بضمه وكتبه بقلمه الفقير إلى الله تعالى محبه عبد القادر البغدادي لطف الله به وبأسلافه وبجميع المسلمين. وتم ذلك في الليلة الرابعة عشرة من شهر رمضان من شهر سنة ١٠٨٧. وحبسنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على عبده وخليفه محمد وآله وصحبه وسلم إلى يوم الدين.

وأهم المخطوطات في هذه المكتبة مجموعة كاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية المعروفة الآن بالشفرة وكيفيتها عند العرب واستخراجها. قال صاحب هذه

الخزانة وكان العرب تسمي هذا الفن بفن الترجمة ورحل التراجم وحل المترجم والذي يشتغل بذلك المترجم (بكسر الجيم) ولذلك ترى المؤلفين الأقدمين مثل ابن النديم وغيره عندما يتكلمون عن الكتب المنقولة عن اليونانية والفارسية يستعملون في الغالب لفظة النقل ولا يستعملون لفظة المترجم ولا الترجمة إلا نادراً. ولما كان هذا العلم خفياً خاصاً بأسرار الحكومات الإسلامية فكان مضموناً به ولا يصل الجمهور إليه فلذلك جهل كثير من الناس معنى هذه الكلمة حتى أن كتب اللغة لا تشير إليها بل إن شراح المقامات (عندما أشار الحريري إليها في إحدى مقاماته) جهلها ولم يفسروها وتحولوا فيها بل إن صاحب لسان العرب نفسه لم يذكرها كان عارفاً تمام المعرفة بهذا الفن وكان هذا الفن مستعملاً في الدولة الإسلامية من أيام المأمون إلى الحروب الصليبية فأخذ الإفرنج عن المسلمين الذين أخذوا مبادته عن اليونانيين ثم رده الإفرنج إلينا. ولجهلنا بعارف أهلنا احترنا باسمه الجديد عند الإفرنج وهو الشفرة التي نقلها الإفرنج عن كلمة صفر العربية واستعملوها بمعنى الأرقام لأنهم استخدموا الأرقام بدلاً من الحروف في الكتابات السرية ثم غننا جعلنا بدلاً من الشفرة لفظة الجفر لتقارب المخرجين خصوصاً وإن الجفر كان يستعمل في الألغاز بالحوادث المستقبلية فصار من هناك شبه علاقة جعلت العامة تعتقد أن الجفر المستعملة الآن هي مأخوذة من لفظة جفر المستعملة في كتابة الملاحم. والصواب غير ذلك.

ويضيق بنا المجال إذا أردنا الإفاضة أكثر من ذلك في وصف هذه الخزانة. ومما فيها كثير من المصورات (الخرائط) المعسولة في أيام العباسيين وبعدهم وخريطة إفرنجية صنع العلامة فلانماريون الفلكي عن السماء وما فيها من الكواكب عليها أسماء الكواكب بالعربي والفرنساوي وضعها زكي باشا. ومنها مجموعة فرمانات الصادرة باللغة التركية بخصوص الحكومة المصرية من أول محمد علي إلى آخر إسماعيل.

ومجموعة أخرى من المصورات لبلاد الأناضول المشهورة مرسومة مدنها بالألوان تزيها ظاهرة مجسمة لواحد من أرباب الفنون المسلمين. وفيها صورة جميلة للسلطان صلاح الدين الأيوبي.

ومن مزايا هذه المكتبة أن صاحبها مثل صديقنا أحمد بك تيمور يعرف ما في خزانته، ليس جماعة للكتب فقط. وعلى بعض شروح وحواش وورق ومفكرات. وتجد فيها الكتب المطبوعة النفيسة أكثر من المخطوطة العربية وأكثر من الإفرنجية والخزانة التيمورية أغنى بمخطوطاتها وأحسن بتنسيقها كما أن الخزانة الزكية أغنى بمطبوعاتها النادرة. ولكل منها مزية تختلف باختلاف محيط صاحبها وأسبابه ومعارفه. ومن غريب الاتفاق أننا كنا هذه المرة أيضاً مع أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري يوم زيارة المكتبة الزكية زيارة طويلة لنستلمي من صاحبها البهجة بعض ما لقفاد عنه آنفاً.

على أننا نعرف خزانته منذ ثمانين سنة وكان حفظه الله رخص لنا بالاختلاف إليها يوم كانت في داره بعابدين أي وقت أحيانا، كما فعل الآن، وأنا نأخذ منها ما نشاء ونرجعه متى نشاء، وقد فعل هذه المرة كذلك ولم يخص بهذه النعمة الأدبية إلا أفراداً معدودين من أصحابه. وأنا لارجو في الختام أن تطول أيام أحمد زكي باشا لينفع مصر وكل قطر يعلمه ويعلم هذا الشرق العربي بحمته ويزيد في فحوضنا العلمي والأدبي بمشاركته الغربيين ومنافستهم في إحياء آثار سلفنا.

#### اللغة الانتقادية

بقية ما في الجزء الماضي.

أشرفت الباب في الطرق وشرت لكم في الدين شريعة. أشب الله قرنه والرجل شب ولده وشب الغلام يشب شباباً والنار والحرب شوباً وشباً. اشتهرنا في المكان أقمنا فيه شهراً وشهر سيفه وأمره شهراً وشهرة. أشكته أجاته إلى أن يشكون وإذا نزع

عن شكايته وشكوته شكاية. أشجاد أغصه وشجاد حزنه. أشكل عليّ الأمر وشكلت  
 الكتاب والظاهر فيها شكولاً. أسررت الشيء أظهرته، وسررت للملح والأقظ نشرته  
 ليحف، أشاف عليّ كذا وأنفي أرشف، وشففت كذا أشوفه جلوته، أشخص الرامي  
 جاز سهم الهدف، وبفلان اغتابه وشخص لسفرد شخصاً وببصره فتح عينه. أشم مر  
 رفعاً رأسه وشممت الشيء شماً وشميماً، أشاد بذكره رفعه وبالشيء عرفه، وشاده  
 يشيده شيئاً أي حصصه بالشيء وهو الحص، أشعب الرجل مات أو فارق فراقاً لا  
 يرجع وشعب كذا أم بينه وفرق بينه ومنه سمي المتن شعوباً، أصحت السماء وصحا  
 السكران يصحو صحواً أصعد في الأرض وصعد في الجبل قال أبو زيد ولم يعرفوا  
 أصاف الرجل ولد له بعد ما أسن، وصاف السهم عن الهدف عدل. أضاح الرجل  
 كثر ضياعه وضاع الشيء يضيع ضيعةً وضياًعاً وضاعه كذا يצועه حركه ومنه  
 نضوع الطيب تحركت ريحه، اضرب عن الأمر في بينه أقام وضرب في الأرض خرج  
 فيها باغياً للرزق، أضجوا صاحوا وجلبوا وضجوا وجزعوا، أطل عليه أشرف، وطله  
 دمه أبطله أطرق الرجل مكث فلم يتكلم، وأطرق الإبل تبع بعضها بعضاً وطرق  
 طروقاً أتى ليلاً، أطلى الرجل مالت عنقه، وطليت الإبل من الجرب، وهو يطله أي  
 يرضه، أطاع له المرتع أي اتسع وأمره إطاعة لا غير، وطاع له أن قاد، أطلع النخل  
 خرج طلعه وألعت من فوق الجبل وأطلعت، أطاف به أم، وطاف حوله يطوف طوقاً  
 وطاف طرفاً، وأطاف يطاف أطياًفاً إذا ذهب إلى الغائط وطاف الخيال بطيف طيفاً،  
 أعجمت الكتاب وعجمت النوى عضضته، أعرضت عن الشيء وعرضت العود  
 عليّ الإناء والسيف عليّ الإناء والسف عليّ فخذيته والجد قيل قد فاته العرض  
 كقولك القبض والنقض والخط والرفض لما يقبض ويرفض وينقض، أعتته من العون

وعنته صيته بعين فهو معيون أعرتة كذا وعرتة صيرته أعور، أعلق الحابل وقع في  
 حبالته الصيد، أعيت في المشي وعييت في المنطق فأنا عمي وعى.  
 أغلقت الباب ولا تقل مغلوق وأغفيت ولا تقل غفيت أغث الحديد فسد، وغاثت  
 الشاة هزلت. أغل الجارز ترك في الإهاب لحماً وأغل وأغل وغل خان وغل صدره غلا  
 وأغل صار له غلة. أغبر في طلب الحاجة جد فيها وأثار الغبر وغبر بقى والغبر بقية  
 اللبن في الصرع وبقية الليل. أفلق في كذا جاء بفلق أي أعجب وفي العلم برع وقلق  
 الهامة والصخرة أي شقها. أفرى الذنب بطن الشاة إذا شقه، وهو يفري ال فرا إذا  
 جاء بالعجب، أفرق من علته وفرق شعره وبين الحق والباطل، أفليت صرت في فلاة  
 وفليت رأسه وشعره وفليت بالسيف، أفتق قرن الشمس أصاب فتقاً فبدا منه وفتق  
 الطيب والناس من عرفات دفعوا أفرضت وجية فيها الفريضة، أفصح الأعجمي  
 وفصح اللحان. أفلقت الجند من مبعثهم ففقلوا قهلاً وقهولاً وخيل قوافل ضوامر.  
 أقرن له أطاقه، والرمح رفعه، وقرن بعيرين في حبل وبين الحج والعمرة أفلعت عنه  
 الحمى وهو في قلع من حمأة، وأفلع عما كانت عليه، وقلعت الشيء من أصله، أقرته  
 صيرت له قبراً يدفن به، وقرته دفنته. أقصيته أبعدته وقصوت البعير فهو مقصو،  
 قطعت طرف أذنه وجعل مقصو مقصي ولا ت قل أقصى أقبست الرجل علماً  
 وقبسته نار جثته له فإن طلبها هو قيل أقبسته أقم الفحل الإبل لقمها جميعاً، وقم  
 الكيت كسبه، أقدته أسقته أعطيته خيلاً يقودها ويسوقها، أقرأت المرأة إذا ظهرت  
 وإذا حاضت. أقات على الشيء اقتدر عليه وقات أهله قوتاً والقوت الاسم وما عنده  
 القبت ليلة وقيتها، أكرى الكرى ظهره وأخذ كروته (كذا) أو كرى نقص وق يل  
 زاد والحديث أطاله والشيء أخرد وقال فقيه العرب من سرد النسا ولا نسا فليكر  
 العشا وليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقل غشيان النسا، وكروت بالكرة كرواً

ضربت بما أكب على العمل وكب الإناء وكعب لله لوجهه. الأح من ذلك أشفق  
 وبحقي ذهب به ولاح البرق والسيف يلوحا لوحاً. ألوى به ذهب به والقوم بلغوا  
 الرجل والبقل صار لويماً أي بعضه يابساً وبعضه فيه ندوة ولوى يده لياً ولواد بالدين  
 مطلقه لياناً. أمقر الشيء صار مرأً والمقر الصبر ومقر عنقها دقها. الإحاق أن يهلك  
 المال كحاق المال ومحاق السيف شدة حره وحقت الشيء أمتعت عنه استغثت  
 وقول الراعي:

خليطين من شعير شتى تجاوزا ... قديما وكانا بالتفريق أمتعا

قال الصمعي ليس أحد يافرق صاحبه إلا أمتعة الشيء يذكره فكان ما أمتع هذان  
 تفرقا ومتع النهار ارتفع وبيد مانع شديد الحمرة وحيل مانع جيد انصلت الرمح  
 نرعت نصله أنصلته ركبت عليه النصل ومنصل الأسنة (رجب) لأنهم كانوا يتنازعون  
 السنة فيه فلا يتحاربون. أهدت الحوض أي ملأته وحوض فدان وهدت للعدو أي  
 نهضت له. انصف فلان صاحبه وقد أعطاه النصفه ونص ف النهار ينصف والأوار  
 ساقه بلغ نصفها والقوم نصافة خدمهم والناصف الخادم أنضيت البعير هزلتها فهو  
 نضو ونضيت السيف وانتضيته سلته ونضا بربه القاد والحضاب نصل. أوعيت المتاع  
 في الوعاء ووعيت العلم حفظته أوهمت مائة في الحساب أسقطها ومن صلاتي ركعة  
 أوغل في البلاد تباعد ووجل في القوم دخل فيهم وهم يشربون من غير أن دعي  
 ورجل واغل ووجل وفي الطعام وارش أو نرعه أغراد ووزعه كفه وقيل (لا بد  
 للسلطان من وزعة) أي كففة. أولع بكذا والاسم الولوع وولع يلع ولعاً وولعاً  
 كذب. أمجد البعير ألقى جرائه على الأرض وهجد هجوداً أنام ليلاً.

باب ما يضعه العامة في غير موضعه

أطعنا خبز ملة وخبزاً مليلاً ولا تقل أطعنا ملة فإنها الرماد الحار، ماء اغمر وما اشد غمورد ورجل غمر الخلق واسمه وفي صدره غمر أي غل ورجل غمر من قوم إغمار نين فيهم الغمارة والغمر القدح وفي فلان ميل (بالسكون) وفي الحايط ميل (بالتحريك) وفاض افناء يفيض أيضاً. عرج صار أعرج وعرج عليه أقام. لاح سهل بدا ولاح تاللاً. تسع بالمعدي لا أن نراد منسوب إلى تصغير معد فاجتمع التشديدان فخفف الغل في الطش وفيما يقيد به والغل العداوة ويقال خرجنا نتره إذا خرجنا إلى البساتين وإنما التزد التباعد عن الماء والريف فلان بتره عن الناء والشراب وفلان نريه بعيد عن اللوم وترهوا بحرمكم عن القوم أبعدهوا عنهم عزت إليك بكذا وأوعزت. صدقة المرأة وصدقتها. ماء ملح وسمك ملىح وملح ولا تقل ماخ افعل كذا وخلان ذم أي لا تدم ولا يقال ذم ضربة لازم وقيل لازم ولاتب بإضارة من كتب وإضمامة وللجمع أضاير وأضماميم. شيء رزين وثقيل وامرأة رزان الفحل لا يقال إلا في النخلة جمعه فحاحيل وعينان الكتاب عنوانه وعلوانه وقد عنونته وعلونته مهلاً يقال للواحد والجمع والمذكر والمؤنث على لفظ واحد ولا يقال يعنى عنك مهل وهلم كذلك ومنهم من يقول هلم وهلموا وهلمى وهلمى تقول إيه إذا استردته وأبها إذا كفته وويها إذا أغريته وواها إذا تعجبت منه وتقول صه ومه إذا سكت عليه وإذا واصلت قلت صه ومه يا فلان وإذا قيل هل لك في كذا قلت فيه حاجة فحذفت الحاجة من السؤال والجواب.

إن أخطأت فخطني وإن أصبت فصوبتي وإن أسأت فسؤ علي أي قلت لي أسأت وسوات عليه ما صنع أي قبحه وأخطأ خطي لغتان يقال (مع الخواطي سهم صائب) لمن يخطئ كثيراً ويصيب مرة ورجل أعسر يسر ولا تقل ايسر ويأمن بأصحابك وشام أخذ بهم بمنة وشامة تكلم فلان فما أسقط حرفاً وما أسقط بحرف كقولك أدخله

ودخلت به وغفلت عنه وغفلته وأغفلته وجن عليه الليل وأجنه وقيل جنه بالضح  
 (الشمس) والريح ولا تقل الضحى عند الحافرة أي عند أول كلمة وقال تعالى  
 (إنا لمردودون في الحافرة) أي في أول أمرنا فلان يسئل ولا تقل يتصدق في معناه فلان  
 وفالانه كناية عن الآدميين والفلان والفلانة عن البهائم. عايرت الموازين عياراً ولا  
 تقل عيرتها وعيرته بذنبه. عاد الظليم صاح يعار عراراً ولا تقل عر. كانا منهاجرين  
 فأصبحا يتكلما أخود بلبان أمه ولا تقل بلبن أنه وهده عصا وعجوز وأتان وعرس  
 وفهر. وقتب لواحد الأفتاب أي الأمعاء وقدم وأضحى كلها مؤنات لا يدخلن  
 الهاء وسميت الأضحى بجمع أضحاة أي الشاة التي يضحى بها يقال أضحاة وأضحى  
 واضحية والجمع أضاحي وضحية وللجمع ضحايا.

ومما تضعه العامة في غير موضعه

تقول للمعلف أرى وإنما الأرى والأخية محسب الدابة وللجمع الواري والأواحي  
 تأدبت بالمكان تحبست فيه وارت القدر لصق بأسفلها شيء من الاحتراق كبر حتى  
 صار كأنه قفة أي الشجرة البالية لا يقبل منها طرف ولا عدل الصرف الحيلة من  
 قولك أنه يتصرف يقال أكذب من دب ودرج أي أكذب الأحياء والأموات يقال  
 درج القوم إذا انقضوا هو نسيج وحدد لمنلا شبه له وأصله أن الثوب الكريم لا  
 ينسج على منواله غيره أحمق ما يتوجه إلى ما يحسن أن يأتي العائط وأصل العائط  
 المظمن في الأرض وزكان من يقضي حاجته إلى العائط فقل ذلك لمن قضى حاجة  
 التيمم أصله القصد وصار اسماً لمسح. الوجه واليدين بالتراب المسافة المفازة أصلها  
 من السوف الشم وكان الدليل إذا ضل بفلاة شم التراب فعلم أنه على الطريق وكثر  
 استعماله فصار يسمون البعد المسافة. ليك وسعديك تأويله البابا ليعد الباب أي  
 لزوماً لطاعتك يقال ألب بالمكان اقام به مرحباً وأهلاً آتيت سعة وأهلاً فلا تستوحش

حياء الله وبياء حياك ملكك والتحية الملك وبياء اعتمدك بالخبر يقال إعرابي جلف أصله من إجلاف الشاة وهي الشاة المسلوخة بلا رأس ولا قوائم ولا بطن خاس. الطعام والبيع أصله من خاست الجيفة في أول ما تروج فكأنه كسد حتى فسد. لا لاتلم عليه أي لا تقبح أصله من أبلمة الناقة ورم حيايتها من شدة الضبعة وأبلم الرجل ورمت شفتاه توحش للدواء أي اخل جوفك له يقال بات وحشاً إذا لم يطعم وباتوا أوحاشاً ليلتين. الأسير أصله أنه كان يؤخذ فيربط بالقد وأسره أي شده فصار الأسير اسماً للمأخوذ قال الله تعالى ابن عوف رجل قوي. رجع بحفي حين لمن رجع عن حاجته قيل أنه كان رجل ادعى إلى أسد بن هاشم فأتى عبد المطلب وعليه خفان أحمران فقال عبد المطلب لا وثياب هاشم ما أعرف شئنا هاشم فيك فارجع فقالوا رجع حين يخفيه فصار مثلاً. الشرف والمجد يكونان بالآباء يقال شريف ماجد والحبس والكرم بالنفس وإن لم يكن آباء لهم شرف. يقال فلان شولة الناصحة وشولة كانت أمة رعناء تنصح موالها ونصيحتها وبال عليهم. الطفيلي منسوب إلى طفيل رجل من أهل الكوفة يأتي الولايم من غير أن يدعى إليها يسمى طفيل الأعراس فكان يقول ودد أن الكوفة بركة مصهجة فلا يخفى على شيء منها والعرب تسمي الطفيلي في الطعام. الوارش وفي الشراب الواغل. بقرطكي مارية هي مارية بنت أرقم. قولهم في تحية الملك (أبيت اللعن) أي أبيت أن تأتي ما تلعن به. قرم إلى اللحم وعام إلى اللبن ورجل عمان وامرأة عيمي. يقال أم وعام أي هلكت امرأته وماشيتة فصير إتماً وعميان. ووحمت المرأة اشتت شيئاً على حملها والماشية تكون من الإبل والغنم وناقة ماشية كثيرة الأولاد البعير كالإنسان للمذكر والناقة كالمراة والبكر كالفتي والبكر كالفتاة والقلوص كالجارية. الفقير الذي له بلغة. والمسكين من لا شيء له، الأرامل المساكين من الرجال والنساء وأرمل نفذ زاده.

وعام أرمل وسنة رملاء قليلة المطر. رمح ذو الحافر وركض ذو الحف وضبط البعر بيده. المراد ما يستقى فيه الماء والراوية ما يحمل عليه الماء وقد رويت القوم استقيت لهم الماء ضفرت. المرأة الشعر ولها ضفيران وضميران ولا تقل ضفيران. الزوج يقال للرجل والمرأة وقيل زوجه وزوجته. امرأة تزوجتها وليس من كلامهم تزوجت بها وأما قوله تعالى (وزوجناهم بحور عين) فمعناه قرانهم وهي لغة ويقال زوجا حمام للذكر والأنثى. الغلط في الكلام والغلت في الحساب يقال غلط وغلت. توضأت وضوءاً وقد وقدت النار وقوداً ووقداً وقدة والوقود حطب يوقد به والظهور والغسول والبخور والذرور والسقوف والسعوط والمنون والسحور والفظور ما يفعل به ذلك. واللبوس ما يلي. والقرور والبرود ماء بارد يغسل به وقد اقررت والسدوس الطيلسان وسدوس اسم رجل. والعلوق ما يعلق به الانسان وبه سميت المنية علوقاً. السموم والحرورالريح الحارة. والذنوب لحم أسفل المتن. والدلو فيها ماء القيء دواء يشرب للقيء. العقول دواء يمسك به البطن والمشوش ما تمش به اليد أي تمسح والمش مسح اليد بالشيء. الحشن والرقوء ما يرقأ به الدم هو شوب لكذا أي يزيد فيه ويقويه والصعود مكان فيه ارتفاع والمؤد العقبة الشاقة وهبوط وحدور وحطوط شوب اسم للمنية خاصة الفرقل لما تقول له العامة القرفر والقافوزة والقافوزة فمولدة هو مضطلع بحمله أي قوي مفعل من الضلاعة وفرس طليح ولا يقول مضطلع والراكب الذي على البعر وإلا ركوب أكثر من الراكبوهم أصحاب الإبل والركاب الإبل الواحد ولا واحد من لفظها لها. زيت ركابي يحمل على الإبل والفارس راكب الفرس والحمار والبغائ قيل حمار وبغال ورحالة وخيالة رجل نابل ونابل من النبل فإنه يعلمه فنابل رجل سايف وسياف وتراس ودراع ومتقوس ومتبل

مع هذه الأشياء وفارن معه سيف ونبل ومقنع عليه مغفر والمزدي والمدحج والشكاك  
والشانك التام السلاح.

البغايا الفاجر والطلانغ فواحدة الإمام بغى وواحدة طلائع بغية أي طليقة في سيل  
الله أنت ولا تقل في سيل الله عليك طوبى لك ولا تقل طوباك ما به من الطيب ولا  
تقل من الطيبة سخرت منه ولا تقل وعجوز ولا تقل عجوزة تلك وتيك ولا تقل  
ديك كلية ولا تقل كلوة وكلينه أصبت كلينه حسي كذا أو حسي من كذا  
واحسي كذا كفاي ولا تقل بسى قدى من كذا وقدي وقطي وقطنا وبحسي كذلك.  
النجف (العراق).

محمد رضا الشيباني.

### آثار العرب الخالدة في أوروبا

اللهم مالك الملك تزي الملك من تشاء وتزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل  
من تشاء! بيدك الخير إنك على كل شيء قدير

قرآن شريف.

سادتي

أقرنكم تحية العرب فأقول لكل فرد: سلام عيكم.

وأثني بتحية الإسلام فأقول لكم جميعاً: السلام عليكم.

وأعزز هذه التحية المزدوجة بما أخذه الإفرنج عن العرب فأقول لكم بمراجعة المعنى  
الصحيح:

هذه الكلمة، أيها السادة، وإن كان الإفرنج قد نقلوها إلى معنى التملق والمبالغة في  
الخصوع والخنوع والخشوع، لكنها في الحقيقة تدلنا على تأثير الحضارة الإسلامية  
على أمم الغرب في أوروبا. أفليس من سنة هذا الكون ومن نواميس العمران أن

الاحتكاك بين الأقسام المختلفة وإن اختلاط الشعوب المتباينة لا بد أن يترتب عليهما تأثيراً لبعضهما على البعض الآخر حتى يظهر هذا التأثير في الأحوال العامة وفي الشؤون الخاصة؟ وذلك التأثير مصدره قوة الحضارة. فيكون ضعيفاً ضئيلاً أو قوياً جسيماً بحسب ما وصلت إليه الأمة الغالبة من الارتقاء في سلم المدنية، ويقدر ما نالته من السيطرة والرجحان.

فأما أمة استبحر العمران بين أبنائها فلا بد لها من التبسط في الأرض والتغلب على الأمم. فلا يلبث أن يكون لها سلطان (ولو معنوي) على البطون والعشائر التي تجاورها أو تمازجها أو تأثر بكلمة منها. وأثر ذلك أن يظهر للمتأمل المتفكر كجبين الصبح ووضح النهار في الأمور المعاشية من زراعة وصناعة وتجارة، بل في الأخلاق والعادات والطباع، بل في العلوم والمعارف، بل في الجد والهزل والرقار والخلاعة. لست أذهب بكم بعيداً في إثبات هذه الظاهرة العمرانية وهذا الناموس الاجتماعي وإنما أناشدكم أن تنظروا عن أيمنكم وشمائلكم وفيما بين أيديكم، أفلا ترون الرجل من قومنا ممن لا يحسن التلطف بلغة أمه وأبيه، ولم يرزقه الله إماماً قليلاً برطانات الأعاجم، أفلا ترونه يبادر صاحبه ومشاكله عندما يلقاه في ليل أو نهار: بونجور مون شير، بون سوار؟.

أفليس من الخفق الخزوم به أن أبنائنا سيلقون في الغيط وفي البيت جود مورنج ماي دير، جود نايت؟ بل قد خرجت هذه الكلمة من أفواههم!

ذلك لعصري من خور النفوس وضعف الطبيعة وانحطاط الأخلاق. وقد يكون من باب التنطع عند العلماء، ومن باب الخذلقة (الحفلة) في أنصاف العلماء (وهم شر الناس). وأما الجاهلون فحسبهم أهم جهال. وبقي أن التنطع والخذلقة من الأمور

التي لا بد لنا من محاربتها لنكون قوامين على لغتنا وذاتيتنا، وليكون لنا سعي مشكور في إحياء آدابنا وإحياء بلادنا.

على أن موضوعي في هذه الليلة سيضطري في كثير من المقامات إلى التذكير بالفاظ أجنبية مأخوذة عن العربية لأبين ما تركه أجدادنا من الآثار الباقية والمآثر الخالدة في الأمم الأوربية. فعلى سبيل التمهيد ومن باب الدخول في الموضوع أستأذنكم في إلقاء جملة صغيرة باللغة الفرنسية يتغلغل بها الكلام وليأخذ الحديث برقاب بعضه بعضاً.

لا جرم أن يأخذكم العجب وتولاكم الدهشة إذا قلت لكم يا سادتي إن كلمتي مشتقتان عن جرثومة عربية محضة فالأولى (ونظيرها عند الطليان فعل مأخوذة من قول فلان حائر بائر. وأما الثانية فهي من قولهم بهرت فلاناً فانبهر. فهل يصح لأحد أن يحار بعد الآن في ذلك الاشتقاق) وقد ظهر السبب فبطل العجب؟ وهذا كما ترى.

أقف هنا قليلاً. ولا أزيدكم علماً بأن الفرنسيين كثيراً ما يستعملون كلمتي وتحليلها اللغوي وانظر إلى ذلك أو كما يقول عامتنا أهو كده هو كذا ويضارع ذلك قول العرب: وهذا كما ترى تلك الجملة ترد كثيراً في مسامرات أبي حيان التوحيدي مع وزير بغداد كما نراه في كتاب الإمتاع والمؤانسة الذي أحضرته في هذا العام من خزانة القسطنطينية. وربما حاضرت قومي به وموضوعه في فرصة أخرى.

ذكرت لكم في الجملة الفرنسية كلمة تالته وهي كلمة وأصلها عربي أيضاً. ولو نطقنا بها على الطريقة الطليانية لقنا: سوكي أو لو

بختنا ما يقابله عندهم لوجدنا فلو سقنا الآن آية من القرآن لظهر أصل الاشتقاق. قال الله تعالى في وصف الصحابة: (رحمنا بهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. سيماهم في وجوههم من أثر السجود. ذلك مثلهم في التوراة. ومثلهم في

الإنجيل كزرع أخرج شطأه (فراخه وورقه) فأزره فامغلظ فاستوى على سوقه  
يعجب الزراع) (الآية).

أخذ الإفرنج كثيراً من طرق العرب واساليهم في الزراعة كما سنيه فيما يجيء،  
واخذوا معها اللفاظ تارة وهي في حالة المفرد وتارة في حالة الجمع. ومن هذا القبيل  
كلمة التي نحن بصددنا أخذوها عن سوق جمع ساق ثم حرفوا معناد عن أصله فترلوا  
بها إلى باطن الأرض وجعلوها بمعنى الجرثومة والأصل: ثم توسعوا فيها فأطلقوها على  
جميع المعاني التي تدل عليها الجرثومة في اللغة العربية حساً ومعنى. حقيقة ومجازاً.

وهناك ألفاظ كثيرة جداً تدل على تأثير العرب في الإفرنج تأثيراً باقياً إلى الآن:  
نعم إن المعالم ذهب بها الأيام والعوادي، ولكن أثرها قد بقي. فالأطلال تحدث الشاعر  
الباحث. وتستوقف الناظر والمسافر وتناجي الضمائر والخواطر، بما كان للعرب في  
تلك البلاد من الآثار والمفاخر.

وسأعترف لكم نذراً يسيراً مما علمت أنه مأخوذ عن العربية وقد تأصل في اللغة  
الفرنسية الجميلة (وما يتبعها من اللهجات الخاصة ببعض الأصقاع في فرنسا) وفي  
اللسان الطلياني (وما تولد عنه أو من اللهجات الشائعة في شبه الجزيرة الطليانية وما  
إليها من الجزر الأخرى) وفي لغتي الإسبانين والبرتغاليين (وما تفرغ عنه أو تفرغ  
عنها في ربوع الأندلس بحسب الاصطلاح الجغرافي العربي من الرطانات المتداولة  
الآن أو التي قضى عليها ناموس النشوء والارتقاء بالدخول في خبر كان).

قلت لكم إنني سأعترف من ذلك شيئاً، ولست أتعدى كلمة الاعتراف قبل أن  
أحيطكم علماً أن الإفرنج أخذوا عنها كلمة الفرنسية الطليانية الصقلية الإسبانية.  
ولكنهم كلهم تطابقوا على تناقل اللفظ العربي من المصدرية إلى الاسمية. فهو عندهم  
لبناء من الزجاج يوضع فيه الخمر أو الماء. ومن ذا الذي في مصر الآن إذا ذهب إلى

محل تجارة مذكور لا يكون قوله مفهوما إذا طلب المشتري الكاراف؟! نعم إن الطالب والمطلوب يتفاهما وكلاهما بغير العربية لا يتراطان أرهما بما يتراطان. لا اريد أن أتشبه بهذا البائع وهذا المشتري، فلا أجول أمامكم في مضمار لست من فرجانه. فاللغة الإنكليزية قليل وبالألماي هو والعدم سواء، وباليونانية كالصفر على يسار الأرقام، إلى ما هنالك من لغات أخرى قد أخذت عن العربية طائفة صالحة من الألفاظ والمسببات مما يتعلق بالعلوم أو بحاجات المعيشة والأرزاق، كما أننا الآن نأخذ منهم بعقل وبدون تعقل، وبفكر وبلا ترو حتى أصبحنا عالة على تلك الألسنة الأعجمية فيما قد نجد له بديلا وعنه غناء في لغتنا. دع عنك الألفاظ التي يتواضع العلماء عليها لأغراض مخصوصة أو لمحدثات لم تكن معروفة، فهذا النوع من الألفاظ ملك شائع لجميع بني الإنسان. وهكذا سنة الله في خلقه: يوم لنا ويوم علينا، (وتلك الأيام تداولها بين الناس).

وأنا أمني (أستغفر الله) بل الواجب علينا جميعاً معاشر الناطقين بالضاد، وأهل مصر على التخصيص، أن نتصافر ونتعاون في هذا العصر العباسي الزاهر وفي ظل ملكنا الرحيم وبعناية رجال حكومته الحاضرة، فنكون عصبة واحدة ونعمل عملاً متواصلاً متوالياً حتى يسنا لنا إحياء آدابنا لتجديد العلوم فيها، ولإيجاد بواعث الارتقاء المنشود. فتلک هي لعصري الخطة الوحيدة التي تجعل لنا مقاماً كريماً بين الناس، كما كان لأجدادنا السابقين إلى الغايات.

أيها السادة

سبق لهذا العاجز الذي يناجيكم الآن أنه ألقى محاضرة بين يدي سيدي العباس بمناسبة افتتاح الجامعة المصرية. وقد أبت فيها أن أهل الإسلام إنما تسموا ذروة مجد بالرحلة

إلى الأمصار ويقطع البحار وعملاً بالأمر الرباني الذي اوجب علينا المشي في مناصب الأرض، والسعي في طلب الرزق، والرزق على معين: مادي وأدي، كما لا يخفى. عمل أسلافنا بهذه الآية الحكيمة فنالوا ما نالوا، وعكسناها فصرنا إلى ما صرنا هؤلاء نحن نرى مئات المصريين إذا جاء القيظ يقولون هلم بنا إلى أوروبا للاصطياف! هذه رحلة الصيف التي كانت لإبلاف قريش! وفاتمهم أن رحلة الصيف كانت لكب المال الحلال من التجارة، وللاستفادة من المنافع المرتبطة بالارتحال: أما قومنا الآن، فالسواد الأعظم منهم يهرع إلى أوروبا في كل عام، وأنتم أعلمم بالغرض الذي يرمون إليه وبالهدف الذي يترامون عليه وحواليه. أهم ينفرون خفاقاً وثقالاً (أستغفر الله) بل خفاقاً متأبطين ما خف حمله وثقلت موازينه، يحملون ورقاً يعني عن الورق تكديماً للشاعر الذي قال لمُدوحه:

أهديتني ورقاً لمُهدوي ورقاً ... قل لي بلا ورق ما ينفع الورق

ولو عاش هذا الشاعر إلى عصرنا لاكتفى من مُدوحه بالتوقيع على ورقة من السفائح (التي يسميها أصحابنا بالكسيالات) أو من المصرف الذي يخزن فيه أمواله بامضاء على شيك من الشيكات، تلك الكلمة الثانية أصلها عربي عن اللغة الفارسية فهي الصك وجمعه الصكوك أخذ الإفرنج هذا اللفظ عن العرب في جملة ما أخذوه عنهم من اصطلاحاتهم التجارية والمالية فقال: شيك.

أصحابنا يهجروننا في الوقت الذي تحتاج فيه زراعناهم إلى عنايتهم! وفي ذلك ما فيه من الضرر عليهم وعلى بلادهم! ناهيك أنهم لا يتشبهون بالطير! تغدو حماساً وتروح بظاناً. وأما أصحابنا فيتهافتون على أوربة بظاننا وقد تأبطوا ما جمعوه أو افترضوه من المال ويرجعون إلينا حماساً بل صفر الوجود، صفر الجيوب.

أفرايتهم أولئك الفلاحين الذين أغناهم الحظ، وهم لا يكادون يفقهون لغة أمهم وأبيهم. أفرايتسهم حينما يقولون: إنا ذاهبون إلى البلد الفلاني لأجل الكور يقولون في أفواهم ما ليس في قلوبهم كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وما هي الكور (الاستشفاء والتدبير الصحي) كلمة سمعها فأعجبهم غرابتها واستعملوها ولا يدرون لها معنى ولا يقيمون لها وزناً ولا يعملون على تحقيقها فعلاً وعملاً!

غير أنني في هذا الشهر المبارك شئت بارقة من الأمل ولعلها مبشرة بغيث ينهل في المستقبل، وأعني به المستقبل القريب.

فقد تشرفت وجمهوراً كبيراً (الواو هنا واو المعية) من أكابر الموظفين بتناول الإفطار أمس على طاولة الخديوية في حضرة وبي الأمر في مصر حفيد محمد علي ولا فخر، الجالس على تحت المعز وبنية القابض على صولجان صلاح الدين وذراقيه، الوارث لتاج الظاهر، التحلي بإكليل النصر، المستوي على عرش المؤيد، المنبؤ لأريكة الأشراف، مولانا ووي نعمتنا المقر الأشرف الحاج عباس حلمي الثاني محي الآداب، العربية.

فقد حدثنا عن إعجازه بفتى من فتیان مصر رآه يجول في جبال الألب فيما بين فرنسا وسويسرا متقباً في بطون الوهاد منقراً فوق ظهور الأتجاد مستجرباً صياصي الأجبان. وغايته من ذلك أن يتعرف ما أبقاه العرب هنالك من المآثر والآثار أو ما تركوه من الرسوم الدوارس والأطلال.

لم يكف المليك بهذه الرعاية التي تتطال نحوها رقاب المجتهدين من أبنائه، بل بالغ في الفضل فأوصى رجال حكومته بأنه يساعدوا هذا الرجل (وهو محمود بك سالم) عند عودته ليمكن من إتمام عمله الجليل وسعيه المشكور فيما يرجع بالفائدة على مصر خصوصاً وعلى الشرق عمومًا.

لا ريب عندي أن رجال الحكومة فاعلون لأنهم يقدرون كل عمل نافع حتى قدره  
ولأنهم قادرون على تعضيد كل مشروع مفيد.

ولم أر في عيوب الناس عيباً ... كنفص القادرين على التمام

كيف لا والإشارة صدرت من الأمير أدام الله لنا وجوده، وأتم عليه نعمته وأيده  
بروح منه حتى يكون حكمه السعيد مرشداً إلى سر العدم الذي نبتغيه لتجديد  
المكارم بفضل حشمه ورجاله الذين وهبهم الله من العلم والحلم ما يؤذن برفع شأن  
الأمة المصرية.

لهذا السبب أردت أن أتعجل في القيام بالمفروض علي من امثال هذه الإشارة والعمل  
بها فيما يدخل في دائرتي ويصل إليه مقدوري.

أردت أن أمهد الطريق أمام ذلك الصديق. حتى إذا ما عاد بالسلامة محمود بك سالم  
وجد النفوس متشربة بفائدة المشروع ورأى الأرض صالحة لهذا الغرس الطيب.  
فيكون شعارنا كلنا: حيّ على عمل الخير!

ذلك هو البعث الذي نبتغيه بعد أن طال السابت، ذلك هو النشور الذي نشده  
للشرق! فالحياة تجدد في كل يوم عن يمينه في الشرق الأقصى وعن شماله في أوروبا  
وأمركا وهو جامد في موقفه كأنه في البرزخ. أفلا تكون حركة من وراء هذا  
السكون؟

نعم فالحركة من مميزات الحياة. ونحن والحمد لله فينا بقية وإن كان بعض الناس ينظر  
إلينا فيخالنا كالنامين في البراري، أو كاهل الكهف؟

بماذا تجدد الحياة في الشرق

بالرحلة لعمرى! كما ابتدأ ديبه انتعشت بما الأمة العربية في أيام الأمويين والعباسيين.  
فمن المعلوم أن الوسيلة الواحدة تنتهي دائماً إلى غاية واحدة وأن المعلوم يدور مع  
العلة وجوداً وعدمًا.

فلعل هذه الخطة الجديدة التي كنت ولا أزال أسعى وراءها منذ ربع قرن تصبح سنة  
بيننا وأنا اليوم على يقين من تحقيق الأحلام. فالداعي إليها اليوم ليس أحد أفراد الأمة  
وإنما هو صاحب التاج، والناس على دين ملوكهم.

هذا وإنني لا أبيع الحكمة إلا بحسن الاستماع ولا آخذ عليها ثمنًا إلا فهم القلوب  
وهذا كما ترى!

يطربني وأيم الله أن أرى هذه السنة الجديدة متداولة بيننا معاشر المصريين فيرحل  
المقدر منا إلى أوروبا بشرط أن يجعل نصب عينيه العمل على الاستفادة مما وصل إليه  
أهلها في حلبة الفضل وميدان التقدم.

لست أنكر على الراحلين أن يضيعوا معظم وقتهم وأن يصرفوا جل مالهم في لذات  
أنفسهم وشهوات بطونهم. ولكني أناشدهم وأناشدهم أمهم (مصر) أن يجعلوا الثلثين  
لهم والثالث لها وأن يعملوا بقول الشاعر:

والله مبي جانب لا أضيعه ... واللهم مبي والخلاعة جانب

بل أكتفي منهم أن يخصصوا لوطنهم نصيباً زهيداً من اغترابهم فالذرة يتكون منها  
الطود الشامخ والقطرة هي أصل العباب الزاخر.

أملني فيهم أن يعودوا لنا بكتاب من كتب أجدادنا التي ليست في خزائنا (والخطب  
سهل فما عليهم إلا أن يصدروا أمرهم لأي إنسان من المشغلين بالنقل بواسطة  
التصوير الشمسي) أملني فيهم أن يرجعوا إلى أهلهم وأهل بلادهم بفائدة (والأمر  
ميسور فما عليهم إلا الآن ينظروا بالعيون التي خلقها الله وأن يعتبروا بالعقول التي

أودعتها الحكمة الربانية في رؤوسهم). إن في أوربة الآن لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو رشيد.

فكما كانت الرحلة سبباً في تقدم الشرق في أيام السلف الصالح، فكذلك تكون إن شاء الله بفضل الجيل الحاضر وما يتلوه من الذراري والأعقاب.

كيف وصل المسلمون إلى أوربة؟

يقطع البحر الفاصل بيننا وبينها. هذا البحر الذي نسميه الآن بالبحر البيض المتوسط والذي كان يسميه أسلافنا بالبحر المتوسط لتوسطه بين أراضي أفريقية وآسية وأوربة واسمه المشهور عندهم بحر الروم. ولو أنهم سمروا بالبحيرة الإسلامية لكانوا قالوا حقاً وأثبتوا صدقاً. فقد امتلكه المسلمون وامتلكوا ما فيه من الجزائر مثل: ميورقة ومنورقة (وهي المعروفة الآن بجزائر البليار وكان المسلمون يسمونها بمدين الاسمين وباسم الجزائر فقط وأما القطر جزائري المشهور فاسمه عندهم مأخوذ من اسم عاصمتهم جزائر بين مزغنة وابن مزغونة) ثم صقلية، وقوسقة وأقريطش (المعروفة الآن باسم كريد) وكل هذه الجزائر كانت الحضارة الإسلامية فيها باهرة زاهية زاهرة.

أما الجزائر الصغرى فكان شأنها كذلك مثل قبرص وروديس ومالطة. وآثار الإسلام ما تزال باقية إلى الآن ولعلكم ترتاحون إلى العلم بأن مالطة كانت سوق الأدب العربي فيها رائجة كان صاحبها اسمه القائد يحيى صنع له أحد المهندسين صورة لمعرفة أوقات النهار بالصنج فقال أبو القاسم بن رمضان المالطي لعبد الله بن السط المالطي أجز الله هذا المصراع.

جارية ترمي الصنج ... بما النفوس تبتهج

فقال:

كأن من أحكمها ... إلى السماء قد عرج

## فطالع الأفلاك عن ... سر البروج والدروج

أما بحر الأرخيل وجزائره فلم يدخلوا في حكم العرب بصفة أكيدة حقيقة وإنما كانوا يغيرون فيه عليها من حين إلى حين تبعاً لعلاقاتهم مع الروم صلحاً وهدنةً وسلماً وحرباً. هذا البحر هو بحر الأرخيل أو بحر هيجاي فانتم ترون أنه شيء وبحر سفيد بشيء آخر. ولا عرة بما يذكر في هذه الأيام في كثير من الجرائد العربية بمناسبة الحرب الحاضرة والكلام على الأرخيل وجزائره العثمانية - فإن الذين وقفوا أنفسهم على الترجمة فيها قد وقفوا عندما رأوا بحر إيجة ورأوا في كتب الجغرافية والتربية أو المعربة عن هذه اللغة لفظة بحر سفيد فاغترروا وغرروا بالقارئ إذ قالوا أنه بحر سفيد وأطلقوا على هذا البحر اسم سفيد لأنه غير متعارف في مصر وظنوا أنهم أفادوا وأدوا الأمانة حقها. فكانا مصداقاً جديداً للمثل السائر عند الطليان وهو ومعناه الترجمان خوان ويضح لنا أن نترجم ذلك مع التساهل ومراعاة ملكة اللسان المصري بقولنا المترجم مترجم والترجمة غلط الكلام.

فأملي أن تصل كلمتي هذه إلى أرباب الأقلام فلا يعودون إلى مثل هذا التخليط. قلت لكم يا سادتي أن المسلمين عبروا البحر فامتلكوا جزائره وجعلوها قواعد تقوم عليها أعمالهم في الفتح كما هو شأننا اليوم مع الدول العظمى. ومنها ذهب المسلمون إلى أوربة فامتلكوا ما قدروا عليه واحتلوا ما تيسر لهم، وأغاروا على ما أرادوا.

ذهبوا بأساطيل مؤلفة من الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام. تلك الأساطيل التي نفي بها الشعراء بما لا حاجة للإشارة إليه الآن لتلا يتشعب معنا الكلام فيخرج عمال يقضيه المقام، وإنما أردت لفت الأنظار إلى أن الدول التي تريد إعلاء كلمتها وحفظ بصتها لا يد لها من امتلاك ناصية البحار وذلك لا يكون بتلك الحصون الماخرات

الشامخات المشجرات. فإن البحر له الشأن الأكبر في رفع شأن الدول وسلاطة بعضها على بعض بحق وبغير حق. وحسبكم ما هو حاصل الآن بين سمعكم وبصركم في البحر الأبيض المتوسط وفي بحر الأرخيل بل وفي البحر الأحمر المعروف في كتب الجغرافيا العربية ببحر القلزم نسبة إلى مدينة القلزم التي قامت مقامها وعلى القرب منها مدينة السويس.

أخذ العرب عن اليونان اسم الأسطول للدلالة على مجموع السفن التي تباشر الحرب في البحر كما أخذنا نحن الآن عن الإفرنج كثيراً من اصطلاحاتهم البحرية. ومن ذا الذي ركب منكم البحر ولم يحتجز له قبرة في الباخرة؟ هذه القبرة هي طليانية المنبت والمخند ومعناها العرفة والحجرة والأوضة. فإن هي إلا معاوضة ومقايسة كما أن البحر إذا انحسر عن البر من هنا طغى على الشط المقابل له في ناحية أخرى. ناموس عام تتجلى ظواهره في كل أعمال الإنسان وفي سائر أحوال العموان كذلك كان شأن الإفرنج منذ قرون ولقد بقيت الأسماء العربية معارفة عندهم وفي كل لغاتهم وليس لهم سبيل إلى تبديلها بغيرها. إذ من ذلك مثلاً واحداً لأنه الأس وبتثابة الرأس فلفظة أميرال عربية الأصل وهو عندنا أمير الماء كما تراءد في موسوعات النويري. بتر القوم القسم الأخير من باب التلطيف والتخفيف كما هو شأننا أيضاً في تعريب الكلمات الأعجمية. وقد جتا الآن فجاريناهم على التعبير بهذا الحرف وبما تركب معه فحق نقول: أميرال، كتر أميرال، فيس أميرال.

من هو أول أميرال مسلم؟

هو العلاء بن الحضرمي الصحابي الجليل عليه رحمة الله فهو أول مسلم ركب البحر للغزو وكان ذلك من جهة الشرق والخليج الفارسي من عمان والبحرين.

وأما أول أميرال مسلم ركب بحر الروم للغزو فهو معاوية بن أبي سفيان حينما كان عاملاً على الشام في خلافة عثمان بن عفان.

ثم أن المسلمين شغفوا بالجهاد في البحر وامتلاك بعض جزائره. والذي يهمننا بصفنا مصريين هو أن نعرف أن أول تأسيس دار الصناعة كان في جزيرة مصر (جزيرة الفسطاط) في سنة ٥٤ هجرية وأن الأسطول بالمعنى الحقيقي كان أنشأه للمرة الأولى في بلادنا في أيام عنبسة ابن إسحاق وإلى مصر باسم الخليفة المتوكل العباس الذي سنذكره بمناسبة المنجنيق عما قريب وكان ذلك في سنة ٢٣٨ وكانت مصر إنما تصد بأسطولها غارات الروم وغيرهم من أمم أوربة.

وأما المهجوم فلم يكن من شأنا إلا في حالة العدوان عليها. وذلك لأنها من حيث الفتح والتوسع في الاستعمار ما كانت تطمح في غير رودس وقبرص.

والسبب في ذلك أنها تركت أمر الجزائر الأخرى للبلاد الإسلامية القريبة منها فكانت تونس توجه همتها البحرية إلى صقلية وسرادينة، وكان المغرب الأقصى متكفلاً بجزائر ميورقة ومنورقة ويابسة وشطوط الأندلس وسواحل فرنسا.

ولكن تونس سبقت مصر في اتخاذ الأساطيل في أيام عاملها حسان بن النعمان بأمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٩ للهجرة.

بلغت الأساطيل الإسلامية من الجلالة أنه كان لا يدخلها غشيم - على قول الإمام المقرئ - ولا جاهل بأمر الحرب وكان لخدمها حرمة ومكانة ولكل أحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم فيسمى بالوسائل حتى يستقر فيه. وقد أفادنا أيضاً أن العناية بالأساطيل الإسلامية في مصر إنما قويت منذ قدوم المعز لدين الله إليها. وأن المقدم على الأسطول كان أميراً كبيراً من أعيان أمراء الدولة وأقواهم نفساً (وهو الأميرال) وكان الأسطول يزيد في أيام العز على ثمانمائة قطعة ثم اخذ في الانحطاط

ولكن لم ينقص قط عن مائة قطعة فكان الخليفة يحض نفسه تجهيز الأسطول وتفريق النفقة على رجاله. حتى إذا تمياً للإقلاع ركب الخليفة إلى منطرة المقس (محل جامع أولاد عمان الآن) لتوديعه في احتفال باهر فيكون له يوم شهود يزيد بهاء ورواء حركات الأسطول المعروفة الآن بالمناورات البحرية والحربية وقد بلغ من عنايتهم بالأسطول إن دار الصناعة في مصر ما كان يدخلها أحد ركباً إلا الخليفة ووزيره وذلك يوم الاحتفال بفتح النيل أي جبر الخليج الذي انطمس الآن وصار طريقاً للرمواي وأصبح الاحتفال الآن معروفاً بموسم وفاء النيل.

كان للأسطول في أيام صلاح الدين ديوان مخصوص يسمى بديوان الأسطول وسلمه إلى أخيه الملك العادل. فكان هذا الديوان يشبه ما كان معروفاً في أيام محمد علي بديوان البحرية وما هو معروف بديار أوربة بنظارة البحرية. وهو الآن صفر في مصر لا عين ولا أثر.

وكانت إسكندرية ودمياط هما الميناءان الحربيان البحران في ديار مصر وضم إليها مدينة تنيس التي هي الآن خراب بلقع وأما الفسطاط (مصر القديمة) وقوص (من أعمال الصعيد) فكانتا من أعظم الموانئ النيلية وفيهما يكون إنشاء السفن الحربية التي ترابط بتلك الضور وتذهب للغزو والبحر لأجل إعلاء كلمة مصر وجعل رايها خفاقة في الحفاقين.

ما هي القطع التي كان يتألف منها الأسطول في الدول الإسلامية؟

هي الأعواديات والأغربة والبركوشات والحراريتق (أو الحراقات) والشلنديات والمسطحات. وبعده سفان أخرى تأتي في المرتبة الثانية من المكانة وإن كانت حاجته إليها شديدة وستكلم عليها عما قريب.

سارت الأساطيل الإسلامية باسم الله مجراها ومرساها فأرست على سواحل الجزر وشطوط أوربة. وأتى مراسيها وهي الأناجر جمع أنجر لفظة يونانية عربوها فقال الفرنسيون واشتقوا منها المصدر ثم ربط العرب مراكبهم بالحبال الغلظة وهي الأمراس والمرار جمع مر فسمى الطليان ذلك الحبل وتوسع فيها الفرنسيون فقالوا مثل ما صنع العرب حينما قالوا أمر السفينة أو الشيء أي ربطها بهذا الحبل الغليظ القوي المتين وعلى ذكر الحبل أذكر بأنه هو الفرنسية بمعنى واحد وأن اللفظة الثانية مأخوذة عن ذلك الأصل العربي.

ولا يسعني أن أتجاوز الشط وأن أتبع العرب في سيرهم قبل أن أقول أنهم حينما استقرت قدمهم بالسواحل أنشأوا فيها دور صناعة على مثل مذ ذكرنا في مصر وتوس فقال الطليان في أول الأمر (دور الصناعة) فكان مثلهم في هذا مثل أهل أسبانيا والبرتغال. ثم قال الطليان ثم ثم ثم واستمروا على هذا اللفظ الأخير إلى يومنا هذا ومنه كلمة الفرنسيين فلما جاء محمد علي وتقلد أمر مصر وأراد إحياءها رأى أن ذلك لا يتم إلا بإنشاء الأسطول. فاستحدثت دار الصناعة في الإسكندرية وأشأن الأسطول واستخدم في ذلك الكثير من الأتراك والطلبيان وغيرهم من بني الأصفر فلذلك جرى أجدادنا الأقربون هؤلاء القوم فاستردوا منهم كلمتنا العربية البحتة الختة الخضة مصوغة بلون إفرنكي ضاعت معه معالمها الأصلية فقالوا كما قال الترك ترسانة بل تركها بعضهم أكثر من الترك أنفسهم فقالوا ترسخانة من باب المبالغة في التضليل وتعفية آثاره الأصلية. وقد استحكت هاتان الكلمتان في استعمال الخاصة والعامّة حتى لا سبيل لاقتلاعهما أو الإقلاغ عنهما مع أن الطليانيين لا يزالون إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم يقولون ولكن للدلالة على القسم الداخل في جوف الميناء حيث يربطون السفن احتاجة للعمير بعد نزع ألقا وجهازها.

ما هي الوظيفة الأساسية لدار الصناعة؟

إنشاء السفن وإصلاح ما عساه يحدث فيها من العور؟

أخذ الإفرنج الكلمة الثانية وصنعوا منه كلمة ثم أطلقوها أيضاً على جميع أنواع العوار في السفن والسلع وغير ذلك.

ومن المعلوم أن إنشاء السفن يدعو إلى ما نسميه نحن الآن بالقلفظة على يد القلظاء فهذان اللفظان نالهما ما نال دار الصناعة فإنهما معربان عن اللغات الأوربية التي أخذها عن اللغة العربية. وهذا كما ترى.

رأى أجداد عملة المسلمين يشتغلون في دور الصناعة بالقلافة فيقلفون المراكب فقالوا من فعل قلف العربي ثم أضافوا إليه علامة المصدر في لغتهم بعد زيادة حرف التاء للتوصل للنطق بين ساكنين كما يقولون في حالة الاستفهام ؟) قال في تاج العروس قلف السفينة قللاً بجزز الواحها بالليف وجعل في خللها القار (الزفت) والاسم القلافة بكسر القاف أفليس هذا هو الذي يفعله القلظاء يا أبناء السبالة وأولاد الأنقوشي؟ فأنتم في ذلك شهود عدول.

كل أسطول لا بد له من سفائن تحمل له الزاد والمتاع والكراع. فسماها التي نسميها اليوم (بالنقلات) أما الأساطيل الإسلامية فكانت تخدمها القراقير جمع قرقور اخذ الطليان هذا اللفظ فقالوا وقال الفرنسيون لا تعجبوا بين الصل والفرع فإن الانتقال من لغة إلى أخرى يلدنا على ما هو أشد وأبعد ولتعلمن نبأ بعد حين ولكن إذا علمتم أن البرتغاليين يقولون في تسمية هذه السفينة ثبت لكم صدقي وقد استرجعنا اللفظ منهم في هذه العصور الحديثة ولكن مفرنجاً فقلنا كركاة من قول الطليانيين ولكن بمعنى آخر لنوع آخر من السفن التي تستعمل لزرع الطين والرمال من قاع النهر والترع والحلجان ومن قاع المواني والمعابر البحرية في نظير المركب المسى عن

الفرنسيين وكان لابد لكل أسطول من سفائن خصوصية لحمل الخيل وهيب التي تسمى بالطراد جمع طريدة (وذلك خلاف الطراد وجمعه طرادات) أخذ الإفرنج هذا الاسم فقال الطليان ثم وقال الفرنسيون ولكن للدلالة على سفانها الشراعية التي تمخر في البحر الأبيض المتوسط غرباً. ومن توابع الأسطول الفوالمك جمع فلوكة فقال الطليان وقال فرنسيون وكذلك الشباك - ومن توابعه القارب فقالوا من اللفظ المفرد وهو قارب ورعاً يصح القول أنهم أخذوه من غرائب بقيت على شكل كلمة بشأن الشلنديات التي ذكرتها في أسماء مراكب الأسطول. فسفردها شلندي (ولا ادري ما أصله في العربية) وربما كان أصله عن اللاتينية وهو واخذوه الروس فقالوا وقال الطليان والفرنسيون واسترجعناه منهم بطريقة التعريب والتقريب والتشيل والتأهيل فقلنا (صندل) وأصبح هذا الاسم بتعريفاته عندهم وعندنا على السفائن المختصة لنقل البضائع مثل الماعين جمع ماعون التي قال فيها الفرنسيون وقال الطليان رجعوا قليلاً بنا إلى البحر فإن الأسطول قد تصادفه الرياح بما لا تشتهيها وقد تعاكسه الأمواج فيلقى النوبة أو النواتية منه الأمرين وهو البحر وهولته بعرفهما كل من اقتحم لجة فالملاحون يسمون إضراب الموج الشديد بالهولة فقال الفرنسيون في ذلك للموج المعالي كالجبال وقد تعاكسه الرياح التي تهب من الجنوب الشرقي فبقي الاسم الثاني في ذاكرة أفرنج فقال الطليان - وأما الفرنسيون أطلقوا عليه وكل ذلك مأخوذ من الشرق وأما رياح الموسم فيسمىها الفرنسيون والطلليان ولا تعجبوا لوضعهم النون بدل الميم في آخر الكلمة فلهم في التبديل شيء كثير من هذا القبيل وحسبنا جنمياً أنهم يسمون مدينة سواكن فلأخذ النون من هناك ونضعها بدل الميم هنا لترد كل شيء لأصله لأن كلمة عندهم مأخوذة من الأصل العربي وهو الرد ولا عجب فإن اللاتينيون قالوا بإضافة علامة المصدر فراد الطليان والفرنسيون نونا من

عندهم وليس لنا في ذلك شأن عندهم ولكنهم عند نحت الاسم يردون الكلمة التي جرثومتها العربية فيقولون في تقديم الحساب وفي تسليم الحصون.

نعود إلى السطول ونقول أنه بعد أن لقي من البحر ما لقي دخل إلى الميناء ولعدم خبرة الريان اصطدم بثعب فقال إفرنجي في ذلك تشبيها له ببروز الرصيف في الشوارع والطرقات التي أنشأها العرب فيما بعد بتلك البلاد ثم دخول الأسطكول إلى الميناء في كلاءة الله وحفظه وفعل ما سنأتي على بيانه. وصل إلى الخل الذي يأمن فيه من عبث الرياح وثوران المواج وهو الموضع الذي يسميه الإسبانون والبرتقاليون والفرنسون وقد استعمله الفرنسيون من كلمة.

ألفاظ أصلها مشتق من كلمة كلاً العربية بمعنى حرس وحفظ.

وهذا كما ترى.

ماذا صنع الأسطول؟

اصطف للقتال ونصب المنجنيق. هذه كلمة يونانية استلحقها العرب وأضافوا إليها النون الأولى لتدخل في أوزانهم.

عادة المغاربة جرت بأنهم لا يضعون نقط الأعجام فوق الفاء والقاف وتحت الياء متى كانت هذه الحروف مفردة أو في أواخر الكلمات.

غذ في هاتين الحالتين لا يمكن حدوث التباس بينهما وبين ما يشابههما من الحروف الأخرى. فلو تصورنا أن بعضهم كتب اسم هذه الآلة الحربية على هذا المثال منجنيق وفرضنا أن ذيل الحرف الأخير انطمس بسبب ما فأصبح منجيو فإننا لو أردنا أن نرسمها وهي على هذا الشكل بحروف إفرنجية لتحصلنا على منجيو وينطقهم منجيو بغير تشديد النون وإن كانت مكتوبة مرتين وهو الاسم الذي القه الفرنسيون على

المنجنيق.

أتعكم بذكر البحر والحروب وأنتم أهل السلام فهل تحبون الذهاب إلى العراق  
والدخول بمدينة السلام، مدينة بغداد؟

كانت مدينة أبي جعفر (بغداد) جنة الدنيا في عهد هارون والمأمون وخصوصاً في أيام  
المتوكل. وكان فيها شاعر يسمى أبو العبر له أحوال عجيبة وأمور غريبة وكان من  
الحنان الذين يقل نظيرهم في الدنيا. وقد تكفلت كتب التواريخ والأدب بشرح أموره  
وكان يزيد في كل سنة حرفاً في اسمه حتى انتهى بعد بضع سنوات إلى: أبي العبر طرد  
طيل طليري بك بك بك كان المتوكل يلبسه قميصاً من حرير ثم يرمي به في المنجنيق  
إلى نهر دجلة فسقى حذفه المنجنيق في الهواء قال: الطريق الطريق (كما تقول الآن  
وسع وسع) ثم يقع في الماء فيأبى السباح ويستخرجونه من الماء. وكان في أحد قصور  
المتوكل زلاقة ما أشبهها بالتوبوجان الموجود الآن في مصر الجديدة (واحة عين شمس)  
فكان الخليفة يأمره بالجلوس عليها ومن هناك ينحدر ساقطاً من فوق الزلاقة حتى يقع  
في البركة فيطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك. وفي ذلك يقول  
شاعرنا:

ويأمرني الملك ... فيطرحني في البرك

ويصطادني بالشبك ... كأني من السمك

فعل المنجنيق بالحصون أفاعيله وتم له النصر فخلا الجو البر للعرب فزلوا وقاتلوا  
وفازوا ثم شنوا الغارات على الأقطار النائية تمهيداً للتسلط عليها فقال أصحابنا في  
الغارة وقال الإسابيون في المغاورين ولا يزال أهل إيطاليا يقولون للدلالة على الجندي  
وعلى المزيق الذي يعتقله وقالوا في الغازي (وذهب بعضهم إلى أنها مأخوذة من  
الوزير) ولا عجب من إضافة الجيم في هذه الحالة الثانية فإنهم يضيفونها على جميع  
الكلمات العربية المبدوءة بحرف الواو فيقولون في الوضوء وفي الوادي الكبير وهكذا

من كلمة اشتق الفرنسيون قولهم لحارس المدنيين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ورأوا العرب يستعملون السطانة وهي آلة لرمي البندق وصيد الطيور فقال الإسبان والبرتغاليون وأما الطليانيون فقالوا واقتصر الفرنسيون على رؤوسهم يستخدمون قاطعة وهي من نوع السكاكين فقالوا وربما كان هذا اللفظ مأخوذ عن صيغة الأمر من قول العرب: قط يقط قطاً أما الخنجر فقال الطليان فيه والفرنسيون وعلى ذلك قول شاعرهم:

وقالوا في الزغاية وهو نوع من الحراب العربية: تجتمع العساكر عادة على سوت البوق ولكن الإسبان حينما أخذوا هذه الكلمة ونقلوها إلى لغتهم قالوا لزماره الراعي. ومتى اجتمعت العساكر للعرض والتدريب فإن الفرسان تحتال بخيولها وقد تحتال الفرس فيدور على نفسه وذلك قول العرب كركر الفرس أخذ الفرنسيون ذلك اللفظ فقالوا وما أجمل امرئ القيس حين وصف الفرس بشطرة واحدة كل كلمة منها تدل على حركة مخصوصة وتجعل السامع يتخيلها واقعة حاصلة بحضرة قال:

مكر نقر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من على.

وكانت السهام في ذلك الوقت هي التي يترمى اخطاريون بها. ولا يزال العرب مشهورين بإصابة القبلة وهي الهدف والغرض والقرطاس. فقال الفرنسيون في هذا المعنى من كلمة قبلة. ولا أزيدكم علماً بأن السهام توضع في الكنانة وهي الجعبة غير أن اشتباك العرب بالفرس والترك جعلهم يختارون كلمة من غير لسانهم وهي التركاش بهذا المعنى فقال الطليان ثم قالوا كما قال الإسبان وكما قال البرتغاليون والفرنسيون وانتم تعلمون أن الفرنسيين كانوا إلى عهد قريب ينطقون بحرفي كما

ينطقون بحرفي ولكهيم عدلوا عن كتابة في مثل هذا المقام وأبقوا على حال رسمها ونطقوها بالنطق الجديد فلذلك صار بينها وبين أصلها العربي بون كبير.

إلى هنا وضعت الحرب أوزارها فاستقرت قدم الفاتحين وعرضوا جيوشهم تحفق فوقها الرايات والأعلام والنود. فأخذ الفرنج هذه الكلمة الأخيرة فقالوا في بند المعربة عن الفارسية دلالة على الجماعة المنصوين تحت لواء واحد ثم اطلقوها من هذا القيد وقال الطليانيون في ذلك والفرنسيون وأخذنا عن الطليانيين كلمتنا مطلية فحن نقول الآن بنديرة.

### ماذا كان لون راياتكم؟

كان تبعاً لشعار الدولة القائسة في دمشق أو بغداد أو القاهرة. فشعار بني أمية من الألوان الخضرة في الملابس والبياض في الرايات أخذوا البياض عن اللون الذي كان يعتم به النبي صلى الله عليه وسلم وأما بنو العباس فشعارهم السواد في الخلتين. لأخذوا ذلك فيما يقال عن اللون الذي اختاره رسول الله يوم حنين ويوم فتح مكة. فإنه عقد لعنه العباس راية سوداء وقيل أن ذلك يرجع إلى حزمهم على إبراهيم بن محمد أول القائسين بالدعوة العباسية. فإن مروان بن محمد الجعدي المنبؤ بالحمار هو آخر بني أمية حينما ضيق عليه الخناق قال الرجل لشيعته: لا يهولكم قتلي. فإذا فكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم العباس. فلما قتله مروان ليس أشياعه كلهم السواد حداداً وحرناً عليه حتى إذا صار إليهم هذا الأمر أعني الخلافة جعلوا السواد شعارهم في كل أمرهم وكانت جنودهم تعرف باسم المسودة فكانت المسودة تتقابل مع الميضة (أي لابسى البياض من الموالين للأمويين) والناس على فريقين بعضهم يسود وبعضهم يبيض حتى عم السواد سواد العراق وخفق على جميع الآفاق. اللهم إلا في الأندلس فإنها عادت أموية بفضل عبد الرحمن الداخل وكان شعارهم الخضرة

في الرايات كما يراه الإنسان في البقايا المحفوظة إلى الآن في دور التحف بمدريد وغيرها من أمصار إسبانيا.

وقد تغالى الأندلسيون في أيام دولتهم في كراهة السواد حتى أنهم لم يعملوه في الحزن والحداد فكانوا يلبسون الثياب البيض فقط في الحداد لتلا يشتهون بالعباسيين في شيء ما حتى عند وقوع المصائب وكوارث الأيام.

ولقد تجددت في هذه الأيام ذكرى الأندلسيين في حدادهم على يد عادة من فتيات أميركا وهي نظن أنها مبتدعة للبس البياض في حالة الحداد. أشير إلى أرملة الحاجة استور صاحب القناطر المقطرة من الدنانير والملايين المملينة من الذهب الوهاج.

فإنه بعد أن غرق حديثاً في الباخرة تيتانيق وهي لا تزال في ربيع العمر وربيعان الشباب رأت من الراجب عليها أن لا تشوه محاسنها بلبس السواد على ما جرت به العادة الشائعة الآن في جميع أقطار العالم فاخترت البياض. فمن لي بتعريف هذه العادة المعينة بأنها ليست من الاجتهادات وإنما كانت لعرب الأندلس من المقلدات.

ومن غريب ما يعلق بالسواد والنساء أن الظافر خليفة الفاطميين بمصر لما قتله وزيرد. بعث نساء الخليفة بشعورهن إلى الصالح طلائع بن رزيك وهو يومئذ عامل بنية ابن الخصب (أعني أنه كان مدير المينا بحسب اصطلاحنا الإداري الآن) فأسرع لنجدتهن. ورأى أن يستميل الأمة المصرية وأجنادها إليه لأجل إعانة الحریم والدفاع عن بيضة الخلافة فعقد تلك الشعور على رؤوس الرماح (كما هو الحال الآن في وضع جدائل الشعر فوق المزاريق التي يعلقها الرماحة في أوروبا وفي مصر) وأقام الرايات السود من باب الحزن على الخليفة المقتول وعلى ما حل بالقصرين وساكنات القصرين من بيت الخلافة وإعلاناً بالحرب لأخذ ثأر الظافر فدخل القاهرة على هذه الصورة. فكان ذلك من الفأل العجيب وهو أن مصر انتقلت إلى المسودة (بني

العباس) ورجعت إلى حكمهم بعد ذلك بخمسة عشر سنة في أيام العاضد آخر الفواطم وعلى يد صلاح الدين الذي يسميه الإفرنج كلهم فكان السواد شعارها الرسمي تبعاً لراية أمير المؤمنين . حتى جاءت دولة المماليك فصار لون الرايات هو الصفر. كانت لهم راية سلطانية صفراء وهي مطرزة بالذهب وعليها ألقاب السلطان. وبعدها راية عظيمة صفراء أيضاً وفي رأسها خصلة من الشعر وهي التي تسمى بالجاليش. ويتلو ذلك رايات صفر صغار تسمى السناجق.

فلما جاءت الدولة العثمانية صار اللون الرسمي هو الأحمر يتوسطه الهلال المحبوب الذي ترمقه العيون وتلتف حوله القلوب.

فلنقف الآن تحت الهلال ونترك البقية الباقية مخاضرة أو محاضرات تالية إن شاء الله.

أحمد زكي.

مطبوعات ومخطوطات

مؤلفات الدكتور شميل

قليل من المؤلفين المتقدمين والمتأخرين من رزقوا شجاعة الدكتور شميل صراحتة في الجاهرة بآرائه العلمية والفلسفية والاجتماعية عرف ذلك منذ نحو أربعين سنة فعد في مصر والشام أحد أفراد قلائل جداً وربما كان فرداً في بابه نبت المؤلف في كفر شيما من جبل لبنان ودرس الطب في كلية الأميركان وأتقن الفرنسية فسهل الكتابة بما كما سهل عليه الكتابة بالعربية وهو ينظم الشعر يتوخى فيه المعاني العلمية والاجتماعية وهاجر إلى مصر منذ أربعين سنة ولولا ذاك لاضطهد وأوذى كثيراً خصوصاً ومن مذهب الدعوة إلى العلم الخصب الجديد والزهد في التعاليم القديمة كيف كانت حالها وهو ناشر مذهب دارون في النشوء والتحول باللغة العربية وهذا المذهب هو الذي يدعي بعضهم أن أصل الإنسان قرد والحقيقة أنه لا يقول أن القرد

أصل الإنسان وأن الحمار أصل الفرس بل إن افسان والقرود والفرس وسائر الأحياء في الطبيعة قاطبة من أصل واحد في نشونها من مواد الطبيعة ومجرد قواها وقد تغيرت تبعاً لناموس المطابقة حتى بلغت مبلغها الآن بالانتخاب الطبيعي فمذهب دارون الذي أثار ضجة كبرى في هذا الشرق الأدنى يوم ظهوره بالعربية هو مذهب علمي محض يدرس اليوم في المدارس الحرة من غير نكير وهو لا يضر بجوهر الأديان على ما يقول بعض الباحثين فيه بيد أن الحكمة تقضي على المتشبعين به أمثال صديقنا الشسيل أن يدعوا إليه ولا يفضوا من شأن تعاليم رسخت في النفوس فوقرتها على توالي القرون وعندنا أن المبادئ العلمية كانت تربي قبولاً من النفوس في بلادنا أكثر مما رأت لو لم يعرض أربابها بما هو أعز عزيز على الناس شربوا تقديسه مع لبن أمهاتهم وهيهات أن يتحولوا عنه بمجرد دعوة داغ أو تعريض معرض.

والكتب التي بين أيدينا من مؤلفات الشميل هي كتاب فلسفة النشوء والارتقاء وقع في ٣٧٧ صفحة طبع بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٠ وكان نشر أكثره في مجلة المقتطف العلمية كبيرة المجالات العربية ومجموعة ثانية وهي كجزء ثانٍ للكتاب فيها موضوعات شتى عمرانية طبيعية علمية تاريخية أدبية سياسية تقريرية انتقادية فكاهية مما نشره المؤلف في جرائد مجلات كثيرة فضم شتاته وقد طبع في مطبعة المعارف بمصر وهو يقع في ٣٤١ صفحة والكتاب الثالث رسالة في آراء الدكتور شبلي شميل طبع بمطبعة المعارف بمصر سنة ١٩١٢.

### مؤلفات الحسيني

من الناس يؤلفون إرادة النفع العام ومنهم من يؤلفون للالتجار بما يؤلفون وكلتا الطبقتين نافعة ومن أهل الطبقة الأولى صديقنا أحمد بك الحسيني أحد سراء القاهرة وفقهائها القانونيين وآخر ما أهدانا من كتبه ورسائله ما طبعه بمكتبة كردستان العلمية

كتاب بهجة المشتاق في بيان حكم زكاة أموال الأوراق وهو بحث عصري ديني بحث فيه الوراق المالية عند الأمم كلها وحكمها ونظامها وطبق ذلك على الشريعة الغراء وهو في ٢٢١ صفحة والكتاب الثاني البيان في أصل تكوين الإنسان وهو في ٢٠٨ صفحات والرسالة الثالثة في كتاب أعلام الباحث بفتح أم الحباث في ١٥٤ صفحة والرسالة الرابعة في الصول المسماة تحفة الرأي السيد احمد لضيا التقليد واجتهاد في ٨٤ صفحة وهذه الرسائل كلها مما تشتد حاجة العصر إليه لدفع الحرج عن الناس وتعليمهم الدين أو بعض مسائله العويصة مطبقاً على أحكام العلم والعقل فجرى الله المؤلف أفضل ما جازى عاملاً لا يتوقع من عمله إلا الصلح والنفع.

#### طبقات الأمم

تأليف جرجي بك زيدان طبعه بطبعة الهلال بمصر سنة ١٩١٢

ص ٢٨٦

لمنشى الهلال جرجي بك زيدان نفس طويل في التأليف وتفنى في ابتداع الابتكرات من الموضوعات ولا سيما ما راق منها طبقة خاصة من القراء وآخر تأليفه هذا السفر وهو يبحث في أصول السلائل البشرية وكيف نشأت وقرعت إلى طبقات وانتشرت في الأرض وما تقسم إليه كل طبقة من الأمم أو القبائل وخصائص كل أمة البدنية والعقلية والأدبية ومنشأها ودار هجرتها ومقرها الآن وعاداتها وأخلاقها وآدابها وأديانها وسائر أحوالها وقد اعتمد فيه على أشهر ما كتب بالإنكليزية في هذا الموضوع وأضاف عليه بعض ما يلد ويفيد من المعلومات العربية وحلاه بأنموذجات من صور كل جنس من أجناس البشر فجمع إلى الفائدة العلمية الخفيفة النكتة الفكاهية الظريفة تنتفع به الخاصة وتحرض عليه العامة فهنئه بكتابه الجديد ورجو له التوفيق إلى تأليف العشرات من أمثاله خدمة للغة وآدابها.

## حكم النبي محمد

للفيلسوف تولستوي وشيء عن الإسلام وأوربا نقله عن الروسية سليم أفندي قبعين  
 طبع بمطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٩١٢ - ١٣٣٠ ص ٧٩.

اعتاد صديقنا العرب أن يتحف العالم العربي الحين بعد الآخر بشيء مما يكتبه  
 المفكرون في روسيا ولاسيما ما له علاقة بالإسلام والمسلمين يتلطف في ترجمته  
 ويوشك أن يكون وحده الذاهب بفضل هذه المزية في النقل عن الروسية ولا نذكر  
 من المعربين عنها إلا أناساً لا يبلغون عدد الأنامل من أبناء سورية عربوا شيئاً قليلاً  
 عن لغة السلافيين. أما هذه الرسالة فقد قال في وصفها المترجم رأى الفيلسوف تحامل  
 جمعيات المشركين في قازان من أعمال روسيا على الدين الإسلامي ونسبتها إلى  
 صاحب الشريعة الإسلامية أموراً تنافي الحقيقة تصور للروسين تلك الديانة وأعمال  
 صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقية فهزته الغيرة على الحق إلى وضع  
 رسالة صغيرة اختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبي محمد عليه السلام ذكرها  
 بعد مقدمة جليلة الشأن واضحة البرهان وقال هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية  
 وهي عبارة عن حكم عالية ومواعظ سامية تقود الإنسان إلى سواء السبيل ولا تقل  
 في شيء عن تعاليم الديانة المسيحية.

وقد رد العرب الأحاديث إلى أصولها وضم إليها مقالات نشرها بعض كتاب الروس  
 في مجلاتهم بفضائل الإسلام وحقيقته فنشكر للمترجم وترجو أن تصح عزيمته كل  
 عارف بلغة أجنبية أن ينقل لقومه ما يهتهم من الموضوعات وينقصها من المعلومات  
 والإيضاحات.

## الحكمة الشرقية

تعريب محمد لطفي أفندي جمعه طبعه على نفقة مجلة البيان ص ١٠٠.

معرب هذا الكتاب من رجال الحمامة والقلم والخطابة يعرفه القراء بما عرب وألف حتى اليوم فهو مثال النشاط المصري وعمودج الكاتب الاجتماعي العصري وكتابه هذا آخر ما نشره للناس وهو ذو أسفار ثلاثة الأول حكم فتا حوتب الحكيم الوزير المصري الثاني كلستان للشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي الثالث كتاب التعليم الراقي للمرأة في اليابان للفيلسوف الياباني أونادا يجاكو. وفيها كتبها من الحكم الروائع والكلم النوابع ما يجدر بالتأدب الأخذ به وحيدا لو ضاعف المترجم وأمثاله من الإكتثار من مثل هذه الأسفار ليدفعوا عن الناشئة قليلاً من السموم التي تنفثا في النفوس روايات الغرام والفوضى وأخبار اللصوص التي أضرت بأداب الجمهور كبير من المطالعين في هذا القطر وفي غيره من الأقطار العربية وحيدا لو صحت همة نظارة المعارف المصرية على منعها فهو أول واجباتها ومحاربة الرذائل لا يقل في النفع العام عن الأخذ بأيدي الفضائل.

### بلوغ المرام من أدلة الأحكام

لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني طبعه عبد الرحمن أفندي بدران

سنة ١٣٣٠ - ١٩١٢ ص ٢٨٠.

إن ما طبع من كتب الحديث في هذه الديار لم يبلغ القدر الذي طبع منه فيما نعلم في بلاد الهند وهذا المختصر يشتمل على الصول والأدلة الحثية للحكام الشرعية بين المؤلف عقب كل حديث من أخرجه من الأئمة وهو نافع لطلاب الأثر وطلاب الأحكام معاً فلطابعه الشكر الجزيل.

### عجائب المتأدب

ويليه رسالة لقط الحكمة تأليف صالح بك حمدي حماد طبع سنة ١٣٣٠ - ١٩١٢

بمطبعة مدرسة والدة عباس الأول بالقاهرة.

مؤلف هذه العجالة كتب وترجم كثيراً في الموضوعات التي تنفع وتنهض بالقراء إلى مستوى راق وتلقنهم الأفكار الصحيحة وآخر كتبه هذا السفر جمع فيه حكماً ومواعظ قديمة وحديثة منظومة ومنثورة عزاها لأربابها وقدم لكل فصل كلاماً نافعاً من عنده يؤثر في نفس القارئ وبعده لتناول الحكمة المستشهد بها جزاه الله عن الآداب خير.

### بلاغة الإنكليز

أو مختارات لوبان تعريب محمد أفندي السباعي طبع بمطبعة التقدم بمصر سنة ١٩١٢ في ثلاثة أجزاء صغيرة تبلغ زهاء ٣٥٠ صفحة.

أهدتنا مكتبة البيان لصاحبها عبد الرحمن البرقوقي هذا الكتاب النافع معرباً بقلم السباعي أفندي وهو مختارات من كبار مؤلفين الإنكليز في الحكمة والآداب والتاريخ والأخلاق والاجتماع منها ما يلذ المطالع العربي ومنا ما لا يقدر لها قيمة إلا من قرأه بلغته الأصلية وتشبع بروح اللغة المنقول عنها وعرف عادات أهلها ومناحيهم وما يستطيعونه من القول وما يجونونه والكتاب على عادة العرب في ما نقله جيد تمتع وفقه الله إلى ترجمة أمثاله من الكتب النافعة ككتاب التربية لسبنسر والأبطال لكارلايل وغيرهما من معرباته.

### كتب ورسائل مختلفة

#### أحسن القصص

تأليف صالح بك حمدي حماد فيها ثلاث روايات عصرية مصرية. مؤلفة الأولى رواية الأميرة يراعة في ١٤٢ صفحة والثانية رواية ابنتي سنية في ١٥٢ والثالثة رواية بين عاشقين في ١٣٧.

حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وفلسطين وسورية لحقي بك العظم.

الإسلام والإصلاح تقرير رسمي للسر ريشار وود في الإسلام نشره محب الدين أفندي الخطيب.

## أخبار وأفكار

### ثرثرة النساء

يقول احد علماء الإنكليز أن ما شاع على الألسن من أن في دم المرأة أن تكون ثرثرة أمر ثابت من طريق العلم أيضاً وناشئ حقيقة من تواد الدم إلى دماغها على صورة تخالف توارده إلى رأس الرجل فالمرأة يرد عليها أعظم كمية من الدم الشرياني واصلاً إلى فقرتها على حين يصل إلى الرجل أحسن دم وأغزره إلى الدماغ من جزئه الأعلى أو إلى الجبهة وعلى ذلك فيكون عمل الدم في الذكر والأنثى مختلفاً فالقسم الوراثي من الدماغ هو مركز الحواس وهو محل حاستي النظر والسمع في حين أن القسم الأعلى يحتوي على مركز الإرادة والشهوات والرغبات الناشئة من الشعور الداخلي. فالتأثير المنبه الناشئ من غزارة الدم في كلا القسمين يدل إذا على السبب في رؤية المرأة الأشياء بسرعة ولماذا تتلو بسرعة أكبر وتتكلم أسرع من الرجل وتلتذ بكلامها ونحن أكثر من الرجل فإن لطف قواها في المدارك الحساسة وشدة ذكائها وتأثرها متبهاً فيها أكثر من رقيقها الرجل ثم أن مجرى الدم في الرجل أغزر في الجزء الخارجي يهبه غرابة في ظواهره العالية من حيث الأعمال العقلية وحكماً أهدأ وإرادة أقوى ولذلك كانت المرأة ثرثرة أكثر من الرجل - قالته جريدة المايتن.

### تفوق الرجال

نشرت الكاتبة المدونة صوفيا نادجدا في إحدى صحف لندن أبحاثاً جديدة بشأن اختلاف الإحساس في الحواس فقالت أن المرأة أسمى من الرجل في اللمس والرجل أسمى منها في الشم ويختلف الرجل والمرأة في الحكم على الطعم فالرجل يشعر بالحرارة

أكثر من المرأة وهذه تشعر بالحلاوة أكثر وحاسة السمع في الرجل أقوى منها في المرأة وغلط رؤية الألوان عند المرأة أندر منه عند الرجال وبيننا نرى من يغلطون في تمييز الألوان من الرجال على معدل واحد في كل ٢٥ أو ٣٠ نرى عدد النساء واحدة في كل ٢٥٠ بل ١٠٠٠ وهكذا في القابليات الأدبية في الجنسين فقد تبين بالاستقراء أن صفة الهدوء هي في الرجال على معدل ٢٥ في المئة في حين أنها في النساء على معدل ٢٠ وقد فرض على ٢٥ طالباً و ٢٥ طالبة أن يكتبوا في آن واحد ومهلة حددت لهم ما يستطيعون كتابته من الكلمات فكان معدل ما كتبه الطلاب ١٣٧٥ كلمة وما كتبه الطالبات ١١٢٨.

### البقول الشافية

كتب طيب في جريدة الطان مبحثاً في البقول الشافية قال فيه أن الحروب في القديم لم تكن ضارة كل الضرر بل أتت بمنافع عادت على الفاتحين بالشيء الكثير فإن نساء مقدونية كن يسرن مع جيش الإسكندر ليهيئن لأزواجهن اغاريين طعامهم وبذلك عرفن البصل اليابس والبصل الطري والجرجير التي يتناولها المصريون ولو لم يداهم الإسكندر ابن فيليس بلاد الهند لما استطاع العالم القديم أن يعرف الفاصولية واللوبيا. وأخذ أهل غاليا عن أهل فوسة اليونان الذين داهموا إقليم البروفانس الزيتون وصنع الخبز وعاد القرطاجنيون من حملتهم على سردينيا يحملون البقدونس ووجد أحد الإنكليز في فرجينيا البطاطا على عهد الملكة إليزابيث وبالجملة فإننا عرفنا معظم البقول المائة بالاختلاط كثيراً مع شعوب الشرق والغرب وهذه البقول البصل فقد عرف القدماء خواصه في إدرار البول ولطالما كان حساء البصل الدواء الحقيقي يورث الرجال قوة وقد رأى أحد كبار أطباء القرن الثامن عشر أن أربع بصلات تسحق في قليل من الخمر الأبيض تفتح الكلى وتسهل مجرى البول كما تسهل جميع

العقاقير الحادة وقد عاد أحد أطباء بوردو منذ سنتين بعد أن نسي الاستشفاء بالبصل يسمح لأحد المصابين بالاستشفاء باستعماله مقلياً ومشوياً ومطبوخاً فبعد أن كان بطنه مملوءاً ماء أخذ يخف انتفاخه ويرجع إلى حالته الطبيعية وعللوا ذلك لما فيه من آروت البوتاس الطبيعي الموجود بكثرة في لب البصل وقد استعمل الدكتور دلكاشه في باريز البصل علاجاً لإحدى البنات كانت قد أصيبت بالحناق ثم بالكلب وامتلأت ساقاها ماء وعسر عليها البول فلم تكد تستعمل البصل إلا وارتفع البول من ٢٥٠ غراماً إلى لتر واحد وخف الورم وزال هذا ويلاحظ أن بعض المعد ترى البصل بطيئاً على الهضم. ولطالما استعمل الثوم في الشفاء من الطاعون والوباء ورائحته تبخر من الجلد والرئتين والتنفس ولذلك حظر اليونان الدخول إلى المعبد على كل من تناوله فهو مضاد للتعفن أحسن من المواد غير الطبيعية التي نستعملها اليوم وكنا نشير على الناس بالإكثار من استعماله لولا أنه تمام تم عليه روحه وأنفاسه.

ثم أن الرضي شوكي زمن مسحوقاً للشفاء من الحميات المتقطعة وله إذا طبخ في الزبدة (القشطة) يكون لذيذاً للناقين وينفع المصابين بالبول السكري ومثل ذلك يقال في الجزر والفاصولية وأحسن طريقة في الانتفاع من البقول أن لا تغلى كثيراً لتفقد خاصية ما فيها من الأملاح النافعة بل أن تطبخ على البخار كما يطبخها من حتموا على أنفسهم التغذي بالبقول أو على الطريقة الإنكليزية ويكف أن تجعل في سلة من المعدن تناط في القدر فوق ماء غال وبذلك تجمع إلى اللذاذة فائدة. ويحتوي الجزر على صبغة كيماوية وأملاح وفوسفات البوتاس وسكر وغير ذلك من الحجيرات والمواد النافعة في التداوي.

واختلف العلماء في الهليون فمن قائل بأنه دواء أكثر منه طعام ومن مدع أنه سم وقد قال الطبيب فريدريك في أوائل القرن الثامن عشر أن الشراب المعمول من جذوع

الهلبيون يسكن الخفقان وهو أحسن مسكن للقلب والهلبيون أحد الجذوع الخمسة المدرة للبول وأحسنه البرى أما المزروع في الحدائق فقد فقد من خاصياته بقدر ما زاد في طعمه ولذاذته وتكثر مائته فتكون ٩٣ في المئة منه وإذ كان الهليون يهيج الكلى خصوصاً فيمن تجاوزوا الخمسين بحيث قد ينشأ عنه ضرر فالأولى لهم الابتعاد عنه أو يستشيرون طبيهم في ذلك.

ولقد كان الخس مما يرغب فيه القدماء ومنهم من يستعمله عقيب الطعام ويرون أنه مرطب للون وفيه من المواد ما ينفع في تنقية الأحشاء من الفضلات ويدخل مع الكراث في حساء البقول. وهذا الحساء إذا أخذ بارداً على الريق يكون مصلاً نافعاً شافياً من اضطراب المعدة ومن الإمساك الشديد ومانعاً من التعفن ويمكن أن يتناول حاراً ممزوجاً بقليل من الشعيرية والسويد وتحضيره سهل وهو أن يغلي لتر من الماء مع ملعقة صغيرة من الملح الأستر وتلقى فيها كراثان وجزرة ولفته ونصف حسة وقليل من الهندباء المسحوقه وأن تغلي من عشرين إلى خمس وعشرين دقيقة لا أكثر وإلا فتصبح مرة والمقصد مزجها لا جعلها حساء.

وكان للملفوف أيضاً عند أجدادنا موقع مهم ولطالما وصفه كبار الأطباء الأقدمين لما فيه من الكبريت وقد أوصى كوبلر أحد أطباء القرن التاسع عشر في استعماله لمرضى الجلد وتحسين التنفس وإذا صعب هضمه فلا بأس أن يضاف إليه أثناء طبخه ملعقة من بيكربونات الصودا وكذلك السبانخ فإن فيه حديداً حياً بكمية وافرة ولذلك ينفع كثيراً أرباب فقر الدم وفساده وهو ملين يحتوي الكثير من المواد العروية والكر والحسن لمن فيهم مغص أن يتعدوا عن تناوله. ومثل ذلك يقال في القرع والجرجير والخردل الذي يهيج الأحشاء ويظهر الأمعاء ولا ينبغي الإكثار منه لفتح القابلية للطعان في البلاد الحارة فإنه يضر.

هذا وأن البطاطا فقد ارتأى أحد كبار أطبائنا أنها نافعة للمصابين بالبول السكري يتناولها المصاب به ١٥٠٠ غراما لما فيها من أملاح البوتاس الخاصة الغزيرة بحيث أن الكيلوغرام منها يحتوي من المواد القلوية التي لا تحويها معظم المياه المعدنية التي تعمل في أمراض الكبد.

### عظمة الجبان وشقاؤه

كتب بول غولتيه في الطان مقالة تحت هذا العنوان قال فيها أن من لم يدخل الجبن قلبه بعض الأحيان يعني على نفسه أنها متوسطة في مداركها وقابلياتها وانما غير مستعدة للبلوغ والتفنن ومن لم يدخل في طور من الجبن ولو قليل في صباه يستحيل عليه أن يلبس لكل حالة لبوسها بدون تردد على العكس في الشبان الذين يجربون أنفسهم في مواطن الجبن والشجاعة فإفهم من أرباب العقول المتذلة على أن الجبن في المرء ينبغي أن يكون محطة واحدة في حياته وصعب إذا تأصل الجبن بقليل من الخجل والخوف فهو نوع من الاضطراب لا يخلو منه امرؤ وأن وشفور زعيم الاشتراكيين ليصفر وجهه ويحين قليلاً أمام الجمهور وكذلك الخامي بابي المشهور وكذلك كان شأن نابليون الأول وهو يقف أمام شعبه فيتماسك وكم أصيب بهذا الجبن رجال ولاسيما من المثليين والمخاضرين والواعظين وكم من رجل يعد من كبار الخطباء فإذا حنت تقدم له رجلاً يحمر خجلاً وكم من آخر يخوفه ابنه ويحسب له ألف حساب ومن الوف يحشون بأس نسانتهم ومن آخرين يحشون بأس الرجال وكم من أستاذ يخاف من تلاميذه فيجبن أمامهم وكان وهو تلميذ لا يخاف بادرة أحد وكم من رجل كبير العقل واسع المدارك يجبن إذا التقى وأهمل لأنه يدرك هول الموقف فلا يتيسر أن يتفاهم وابداه للفروق بينهما.

والجناء هم الذين غرز الجبن فيهم بالفطرة بدون أن يجنبهم أحد فيجنون لأنفسهم بدون أدنى سبب فيخفق قلبهم ويحمرون ويصفرون ويهتزون وتضيق أنفاسهم وقد يصابون بنعص وغشيان وكم من مثلة كبيرة أصيت قبل الدخول إلى المسرح بمثل هذه الأعراض وكم من امرئ أصاح صوابه فلم يعرف ماذا يقول وماذا يريد فسلبت منه حاسة القول وحاسة الإرادة وغاب فلم يع على نفسه يمكت فلا يحير جواباً ويغيب عن حضور ذهنه ومثل ذلك يصيب الطلبة في الفحوص وكم منهم من أخفق بسبب هذا الجبن. ولطالما شكنا الفيلسوف جان جاك روسو المقتن مونتكيو من جنين ينالهما حتى قال الأخير عن نفسه أن الجبن كان آفة حياتي.

الجبان يصحك الناظرين منه فقد يرفع صوته في محل يجب خفضه ويخفضه في محل الرفع وتختل حركاته وقد يخرج من الغرفة ويقع من تعلق رجله بالبساط وربما حقر الكبير وكبر الصغير وربما ظنه الحضور أحمق أخرق لا عقل له ولا معرفة ولذلك لا يعج في حياته وكم من واحد يدفعه حب المال أن يذهب إلى أقصى الأرض فيفيد من ضعفه ويظهر كذلك وليس هو سعيداً في حبه وربما كان هو المحب الحقيقي بحيث أن كل إنسان مولع بالحب مهما بلغ من جسارته يصبح جباناً أمام محبوبه فلا يحب. والنساء لا يؤخذ بتجامع قلوبهن إلا الجسورون وليس للجبان حظ مع النساء وما أقسى الحكم عليه في ذلك لأنه لم يكن جباناً إلا طمعاً في العواطف.

وفي تلك الحال يغير الجبن أخلاق المصابين إذا لم يستطيعوا التخلص منه ومن يتفوقون عليه يكونون في الغالب دونه على أن الجبان قد يختار العزلة عن الناس لتلا يناله منهم ما يضره في عزة نفسه ويترله عن كبرياته على أن الجبان لا يظل على جنبه إلا لضعف في إرادته وتضاؤل في امتلاك اضطراباته والدليل على ذلك أن الجبن يزيد وينقص بحسب الحالة الصحية والاهمرار يكون على أتمه فيكون فيهم يحمرون بسبب وبلا

سب فهم يشبهون راكب الدراجة يخاف السقوط فتخونه رجلاه فيسقط وكم منهم بقوا عازبين ولم يستعصوا باللذائد وكم منهم فكروا بالانتحار ليخلصوا مما هم فيه. وأحسن دواء للخلاص من الجبن إن لم يكن سهلاً فهو ممكن أن يعتمد إلى عمل كل ما يقوي الجموع العصبي وأكثر ما ينجع فيه التأني وتربية الإرادة. وبالجملة فإن الجبن محطة في الحياة يجب أن يقف فيها الشاب وهي جوهرية تنقذ الرجل الذي يتربى بان تكرهه على أن يحسن قياد نفسه وتعد حياة داخلية دع أن الجبن في أكثر الأحيان هو نتيجة اسعداد لأن يأبي صاحبه بالبدع والرغائب وقصارى القول ينبغي أن يتفاهل خيراً للجبان على شرط أن يداوي نفسه ومثله هو الذي يخاذله التوفيق لأن يكون رجلاً في هند الحياة.

### الأمم والحمامات

أرسل الدكتور كين أحد أطباء مانشستر بلاغاً من أطف ما كتب إلى المجلس الصحي في يورك من بلاد إنكلترا بشأن نظافة الجسم الإنساني والحمامات قال بعد البحث الدقيق أنه في كل عشرين نزيراً في الفندق واحد فقط يستحم وفي مقدمة المستحمين الضباط ثم من اعتادوا الألعاب الرياضية أما رجال الدين فهم أقل الطبقات استحماماً وإذا وضعنا للأمم ترتيباً في الاستحمام فيكون رجال الإنكليز في المقدمة ثم الإيكوسيون ثم الأيرلانديون ثم نساء الأميركيين ثم نساء الإنكليز ثم رجال أميركا ثم الفرنسيين والألمان وهؤلاء على مستوى واحد والسر في تفوق نساء الأميركيين على نساء الإنكليز في النظافة هو أن نساء الأميركيين لا يتحاشين الخروج بالبسة النوم في الفنادق أمام التراء بخلاف الإنكليز فإفسن يتحامين ذلك أدباً وتعظفاً هذا ما قاله إنكليزي في حين كان من الأمور الثابتة في أوروبا أن أكثر أهلها نظافة هم الإنكليز والسر في نفاة الإنكليز أن الاستحمام في معظم فنادقهم مجاني في حين أن الاستحمام

في الفنادق ولاسيما في البلاد التوتونية يكلف الفرنكين والثلاثة كل مرة أما في الشرق فمن العجيب أن تقل النظافة مع بذل الماء وتسهل الوسائط عما كانت عليه في القرون الوسطى مثلاً.

### اللؤلؤ

تشرت مجلة الفرنسية بحثاً في اللؤلؤ آثرنا تحصيله فيما يلي: كان اللؤلؤ الذي يرغب فيه كل ذات ظرف اليوم مشهوراً عند المصريين والبابليين والآشوريين والصينيين ورد ذكره في العهد القديم والعهد الجديد ولطالما أولع بحبه الشرق ولا تكمل حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة إلا إذا كان فيها كلام عن اللؤلؤ ومازالت جميع بلاد الإسلام تتباعه ويكتفون منه بما حضر مهتماً كان حجمه لأن أسباهم المالية لا تساعدهم على ابتياح المدور منه ولا يستعملونه إلا متقرباً يجعلونه في الأساور والعقود ويدخل في بعض العقاقير ولاسيما في بلاد الصين التي تستعمل مسحوق اللؤلؤ في كثير من الأدوية زعماً منهم أن مسحوقه يعيد إلى الشيخ نشاط الشباب في الخامسة والعشرين من عمره وهذا الاعتقاد في نفع اللؤلؤ قديم فقد قيل أن كيلوبطرا ملكة مصر تناولت لؤلؤ حلته في الخل وكانت تعتقد بغناء هذا الدواء. وقد دخل استعمال اللؤلؤ إلى فرنسا على عهد هنري الثاني على يد كاترينا دي ميديسيس ولم يستعمله الناس كلهم إلا منذ نحو عشرين سنة بل كان خاصاً بالعظماء والعظيمات ولطالما أحبت إسبانيا وبولونيا وجزءاً من روسيا الشرقية اللؤلؤ وعدته من أنواع الزينة الوطنية ومنذ نحو عشرين سنة شاع استعماله في إنكلترا وإيطاليا شيوعه في فرنسا ثم أخذ ينتقل إلى جميع بلاد أوروبا ويصل أميركا الشمالية والجنوبية والنساء يرغبن اليوم في اقتناء اللؤلؤ بحيث كادت الأثمان التي تبذل فيه تعد في فصل مالا يتنج من رأس المال فأصبح مفاوض اللؤلؤ لا تقوم بما يطلب منها كل سنة حتى رأوا أن

يتاعوا القديم منه المستخرج من جمهوريات أميركا الوسطى وهو الذي يمداد في بنما وكوستاريكا فبلغت أثمانه عشرين ضعفاً مما كانت تساوي ويتاخ أهل إسبانيا وروسيا وبولونيا لؤلؤهم من الهند والصين فيرقبون أنالاس الراجات أو ملوك الهند بعض السنين ليخرجوا عن لؤلؤهم العظيم وإن كان يعوز عليهم ذلك كما يعز على الصين أن يبيعوا لؤلؤهم خصوصاً ما كان منه مدفوناً مع آبائهم وأجدادهم لأن العادة أن تدفن مع الميت جواهره وحليه ولا يلبث اللؤلؤ القديم أن يتاع من المشرق فيقطع أثره وهذا السبب في غلاء ثمن اللؤلؤ فإن ما يعاد منه أصبح نادراً ولا يعاد اليوم إلا الصغير الحجم ففي سنة ١٩١١ التي كانت من السنين الجيدة في صيد اللؤلؤ في الخليج الفارسي لم يستخرج سوى أربعين لؤلؤة تتجاوز الواحدة الخمسة والعشرين قنحة وهو أحسن موسم للؤلؤ في بحار العالم كله وتقدر قيمة ما يتخرج من الخليج الفارسي سنوياً من أربعين إلى ستين ملون فرنك ويختلف شكل اللؤلؤ بحسب أصدافها وقعر البحار التي تعيش فيها فإذا كان قعر البحر كلسياً جاء اللؤلؤ أبيض وإذا كان حديدياً جاء لؤلؤه ملوناً واللؤلؤ يستخرج وعن منطقة مستطيلة في بحار الأرض في خليج فارس إلى جزيرة مرغريتا إلى فزويلا فمسايد أستراليا فمصوع وتاهيتي وبناما وكليفورنيا والجزائر الهولندية وغير ذلك وخير الصدف ما استخرج من المصايد القديمة أما المصايد الحديثة فتنضب بسرعة ولا توازي العناء في الاستثمار. قد يظن بعضهم أن من يصيدون اللؤلؤ أغنياء والحقيقة أن صانديه فقراء ويختلف عددهم بين ستين وثمانين ألفاً في شاطئ جزيرة العرب والمتجرون به من تجارهم الأغنياء لا يزيد عددهم عن خمسة عشر شخصاً ومصائد اللؤلؤ على ١٥٠ إلى ٢٠٠ ميل من شاطئ بلاد العرب يقضون أعظم المشقات في صيده ويعوضون ثلاث دقائق في الغالب ومنهم من يهلك غرقاً أو أن تعضه سمكة ولا يستطيع أن يغوص أكثر من

خمس سنين ثم يضعف. قال الكاتب ولما رأيت ما حل ببعض هؤلاء الغواصين ذكرت أوباش باريز فقلت في نفسي ليت الحكومة ترسلهم ليعملوا في صيد اللؤلؤ الأشغال الشاقة فإن هلاكهم واقع لا محالة والبلاد تنجو منهم وأعظم سوق تقام للؤلؤ في العالم مدينة بومباي يقصدها تجاره من بلاد العرب ومصوع وسيلان وجزائر جاوة وغيرها من مصائد المحيط الهندي وفيها تكون لسناصرة هذا الحسم الكريم شدة وعرامة وأهم تجاره إنكليز كما أن أهم مصائده بيد إنكلترا وقيمة المستخرج منه تقل سنة عن أخرى وربما جاء يوم استعصى عنه في الزينة بالأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والزبرجد على أن بعض معادن هذه آخذة في النقص أيضاً وتجارته اليوم تساوي مئات الملايين من الفرنكات وكم اغتنى منه من تجار الإنكليز والإيطاليين والألمان خصوصاً بعد أن كان يباع لثمن بخس ولم تكن الأنظار متجهة إليه أما اليوم فندر من يبيع بثلاثة أضعاف ما يشتري وفي الماضي كان ذلك من المألوف.

### الإسراف في القهوة

يزيد غرام العالم اليوم بعد اليوم باستعمال القهوة فالفرنسوي يصرف في السنة كيلوغراماً ونصفاً من البن والألماني كيلوغرامين ونصفاً والأميركي ثلاثة ونصفاً والبلجيكي خمسة ونصفاً والعثماني ستة ونصفاً والبرازيلي سبعة والإنكليزي يكفي بكيلو واحد. قالت المجلة رواية هذا النبا وليت شعري هل اعتدال الإنكليز في القهوة نشأ عنه سكوته في عراق هذا العالم العصبي.

### الالكحول والامية

لاحظوا في ألمانيا أن لانتشار الألكحول علاقة بعلم الشعب فالعملة الذين يطالعون أكثر من غيرهم ولا سيما الصحف أقل استعمالاً للألكحول من لا يطالعون ففي إقليم ورتمبرغ حيث نجد للسكان رغبة دائنة في المطالعة وتباع الصحف كثيراً يقل شاربو

المسكرات أكثر من ولاية بورن الألمانية التي يرغب سكانها عن المطالعة ونقل صحفها وبذلك تسقط دعوى من قال أن العملة يزيد تعاطيهم المسكرات كلما قل عملهم وكثر فراغهم.

### أكبر محطة

تعتبر الآن في أميركا أكبر محطة من محطات السكة الحديدية في العالم وهي محطة سكة بنسلفانيا نيويورك وتنتهي سنة ١٩١٥ تكلف تسعمائة مليون فرنك وأهم ما فيها الشرفات التي تبنى لقبول الركاب وهم نازلون من القطار والخطوط الحديدية تعلو قليلاً عن سطح الأرض وتقام فوق المخططة عمارات ذات عشرين طبقة.

### الحمى المعاودة

قالت الطان: إن للحمى المعاودة شدة خاصة بسبب انتشارها العفني وهي تكثر في أفريقيا الشمالية وأفريقية الوسطى وينقل ميكروبها الحلزوني بواسطة الحشرات الطفيلية ولاسيما القمل وقد أكد نيكول وبيلزو ونسل أن هذه الحشرات لا يمكن أن تنقل الميكروب إلى الأشخاص الذين ليس في جلدتهم آفة أو جرح فبحث العلماء منذ ذلك العهد عن كيفية انتقال المرض فأثبتوا أن الميكروبات عندما تلحق بالحشرات تتبدل وتصبح مرئية باجتهار وتدخل إلى الباطن فتسهر وتكيف تكيفها الأول بعد ثمانية أيام وهكذا يمكن التوفي من الحمى المعاودة إذا اعتنى السكان بإهلاك حشراتهم بدون سحقها والظاهر أن الحميات المعاودة المنتشرة في بعض أقاليم روسيا وآسيا وإيرلاندة وكندا التي يسكنها أناس قلما يخفون بالقواعد الصحية لما نفس هذه الوسائط في الانتقال والعدوى.

### الصناعة في النمسا

وجدت الصناعة النمساوية لها مصرفاً عظيماً في بلادها إذ زادت في الجمهور القدرة على الابتعاغ بزيادة أجور العمال وسهولة استخدام العاملين لأيديهم وأبدانهم ويستدل على زيادة المصروف من البضائع وقلة الصادر منها بنمو عدد العمال في تلك الإمبراطورية فقد كان عددها سنة ١٩٠٢ - ١١٩٥٤ مشروعاً لصنع الحاصلات الصناعية وتحويلها فأصبح عددها سنة ١٩٠١ - ١٤٥١٧ أي بزيادة ٢٥٦٣ منها ٢٦٣٩ معيلاً للنسيج و٢٩٦٧ معيلاً لصنع الحجر والفخار والخرف والزجاج و٢٢٢٥ معيلاً للمواد المأكولة و١٥١٨ معيلاً للسعادن و١٤٦٧ معيلاً للسائل و٩٢٥ معيلاً للحاصلات الكيماوية وقد كان يعمل ١٧٢٣٠٠٠ شخص سنة ١٩٠٢ في هذه المعامل المختلفة والبيوت وعددها كلها ١٠٣١١٤ وتبلغ أجورهم ١٠٥ ملايين كورون فأصبح عددهم سنة ١٩١٠ ٢٦٦٦٠٠٠ شخص وأجورهم ١٨٩٠ مليون كورون يعملون في ٢٣٠٠٠ معيلاً ومحلاً فزيادة عدد العملة ٣١ في المئة والأجور ٥٧ في المئة يدل على أن قوة الاستهلاك في الناس قد نمت في النمسا على معدل واسع.

### السكك الحديدية الهوائية

يراد بالسكك الحديدية الهوائية النقلات المحتوية على أدوات للجر وطرق للدفع مؤلفة من سلك أو أسلاك معروفة من القديم ولم تستخدم في الصناعة ببلاد الغرب إلا في سنة ١٨٢٣ في حين كانت معروفة في نابولي ففي متحفها قطعة من السلك نحاس وجدت في خرائب بومبي وقد عرفت هذه النقلات الهوائية منذ زهاء ألف سنة في يابان والصين وجعلوا لها أسلاكاً من ألياف نباتية ليجازوا عليها الأنهار والأودية العميقة ولكن أول وصف لسكة حديدية هوائية لم يجر إلا سنة ١٤١١ كما شوهد مسطوراً في مخطوط محفوظ في مكتبة فينا ثم شاع استعمالها واخذ اللومبارديون

يعمدون إليها في اجتياز الأنهار ونقل التراب لعمارة الحصون وفي كتاب لرجل ظهر في البندقية نحو سنة ١٦١٧ أول تخطيط لسكة حديد هوائية تعمل لنقل الأشخاص وكانت ألمانيا في العهد الحديث أسبق الأمم إلى استخدامها فقد استعملوها سنة ١٨٧٢ في بناء الحصون في متر ثم أولع بذلك الأمير كان.

### الحبوب النافعة

للفوسفور دخل كبير في قوام الجسم الإنساني كان البشر في أيامهم الأولى يحصلون عليه من ألبانهم ولحومهم ولما شرعوا يررعون الحنطة ويمصرون الأمصار ويحفظون القرى أخذوا يعمدون إلى البقول في الحصول على الفوسفور اللازم قال الدكتور هالم في الطان أن الأرز الذي هو أن الأرز هو أساس غذاء المشاركة يحتوي على ١٤ في المئة من الحامض الفوسفوري وفيه غذاء كاف حديدي ومطبوخه نافع في الشفاء من الإسهال أكثر من جميع الأحسية والعدس على ما يظهر من تاريخ عيسو كان له شأن عظيم في القديم وفي العدس ٧ غرامات و ٥٥ في الألف من الفوسفات وهو نافع جداً للمصابين بالبول السكري. والحنطة كانت في كل قرن غذاء نافعاً تأتي بالفوسفات المطلوب في الأجسام وكان أجدادنا يتناولون الخبز أسمر بما فيه فنعهم لأن فيه ٧٧ في الألف من هذه المادة في حين لا يحتوي الأبيض أكثر من نحو واحد في الألف من الفوسفات ولذلك يفضل الأسمر على الأبيض في الصحة وقد قال أحد علماء الصحة أن انتشار داء ضعف المجموع العصبي (النو استيا) ناشئ من تناول الدقيق الأبيض في الخبز وأحسن الخبز ما كان وسطاً لا أبيض ولا أسود والأبيض منه قد كان منه مرض الزائدة الدودية المنتشرة في هذا العصر. وقد قال الدكتور أن الحب والرضاع يأخذان المرأة فوسفوراً كثيراً وكذلك يفقد المرء فوسفوراً كثيراً إذا كان مصاباً بإحدى الأمراض المعدية كالسل والقرمزية والحمى التيفوئيدية ومن أصيب باللحم والغم وانهاك

عقله بالأشغال الفكرية ومن استرسل في شهواته وفي بيض الدجاج معوض مهم عن الفوسفور لأن فيه ١٣ في الألف فأوصى التعريين والمعمرين أن يتناولوا في الصباح عند قيامهم من النوم صفار بيضة تمزج بمكر ناعم معنجان قهوة وتخلط بلطف في قهوة سوداء لا تكون غالبية كثيراً.